الأيديولوجيا والثورة عند سلافوي جيجيك

(دراسة تحليلية نقدية لأزمة الرأسمالية وتحولات الخطاب الليبرالي)

د/ حمدي عبد الحميد محمد محمد الشريف
مدرس الفلسفة السياسية
كلية الآداب - جامعة سوهاج

- مُقَدِّمة:

ربما لا يكون من قبيل المبالغة ما وُصف به «سلافوي جيجيك[*]» بأنه: «**الفيلسوف السياسي الأكثر خطرًا في الغرب**». إن هذا الوصف يُعبِّر إلى حد ما عن طبيعة مواقفه الفكرية والسياسية، وتوجُّهاته الحاسمة والمثيرة للجدل. وعلى كلٍ، فإن أهمية جيجيك تأتي من ناحيتين: الأولى غَزارة إنتاجه الذي يغطي موضوعات تتقاطع عبر مجالات وميادين مختلفة بدءًا من الفلسفة، والسياسة، مرورًا بالتحليل النفسي، والسينما، والأدب، وصولًا إلى النقد الثقافي. أما الناحية الثانية فهي نابعة من جملة انتقاداته لليبرالية التي تُشكِّل حجر الأساس الفكري بالنسبة للرأسمالية في المجال الاقتصادي، والديمقراطية في المجال السياسي.

وإذا كان جيجيك يُقدِّم نفسه على أنه فيلسوف ماركسي، فإنه ليس ماركسيًا تقليديًا، وقد انصَبّت كتاباته على دراسة مسألة الأيديولوجيا وعلاقتها بالثورة، وكيفية إدراك الأفراد للواقع. فإذا كان ماركس يتناول الأيديولوجيا على مستوى "الوعي"، وينظر إليها بوصفها مجموعة من التمثُّلات والتصورات الفكرية التي يكتنفها الغموض، فإنها بهذا المعنى مجرّد "وعي زائف"، وتستهدف تشويه الواقع الحقيقي القائم على أساس من الصراع الطبقي.

وفي مقابل هذه الرؤية، ينظر جيجيك إلى الأيديولوجيا في ضوء "اللاوعي"، كما لا يعتبرها تحريفًا للواقع، وإنما هي تقوم بمهمة تجسيده على أتم وجه. ومن هنا **جاء تحوله في النظر إلى الأيديولوجيا من كونها تزييفًا مباشرًا يحدث داخل منطقة الوعي إلى كونها تزييفًا للعملية الإدراكية التي ينظر الأفراد من خلالها إلى الواقع الذي يعيشون فيه**. ومن خلال هذه اللبنة المركزية التي يضعها جيجيك، يتناول فكرة الأيديولوجيا بأبعادها المختلفة، وينطلق منها إلى معالجة مسألة الثورة، خاصة في ظل سيطرة الرأسمالية العالمية؛ حيث تمتد إلى جميع مجالات الحياة العامة والخاصة تقريبًا.

من هنا جاء هذا البحث ليَدرُس أطروحة جيجيك حول الأيديولوجيا، من خلال الكشف عن البنية التي ترتكز عليها، والخصائص والسمات التي تتميَّز بها، والآليات التي

(*) وُلد سلافوي جيجيك (Slavoj Žižek) عام ١٩٤٩، في مدينة ليوبليانا Ljubljana في «سلوفينيا»- إحدى جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي السابق- وكان لهيجل وماركس، بالإضافة إلى المحلل النفسي جاك لاكان، أكبر التأثير في أفكاره. وقد أصبحت أعماله مصدرًا خصبًا للبحث في الأوساط الفلسفية، خاصة بعد أن نشر كتابه «الموضوع السَّامي للأيديولوجيا» عام ١٩٨٩، وهناك مجلة دولية مكرسة خصيصًا لدراسة أفكاره تم إصدارها عام ٢٠٠٧، اسمها «**المجلة الدولية لدراسة جيجيك**». والنطق الصحيح له- وفقًا للغة السلوفينية- هو «جيجيك»، وليس «زيزك».

تشتغل من خلالها، وغيرها من القضايا والمسائل التي ترتبط بشكل أو بآخر بنظريته في الأيديولوجيا، وعلاقة ذلك كله بآرائه عن الثورة، التي لا تستهدف في نهاية المطاف سوى نقد الماضي، ومُساءَلة الحاضر، واستشراف المستقبل.

- أهمية البحث:

يُعَدُّ موضوع الأيديولوجيا والثورة على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية، ونحن بصدد هذه النظرية عند جيجيك فإن الأهمية مُزدَوجة؛ فهي نابعة من قوة أفكاره وشمولها وحيويّتها من جانب، ومحاولته الكشف عن أصول العنف الأيديولوجي الذي تُعَدُّ الليبرالية المحرك الرئيس له والمُتسبِّب الأول فيه من جانب آخر.

من هنا تأتي أهمية هذا البحث للوقوف على مختلف أفكار جيجيك حول القضايا والمسائل المرتبطة بنظرية الأيديولوجيا والثورة. ويرتبط بهذا الجانب من الأهمية جانبٌ آخر؛ ويتمثّل في اشتباك جيجيك مع الواقع السياسي في محاولة منه لإنزال النظريات الفلسفية من الأطر الأكاديمية المغلقة للانخراط في المشكلات المعاصرة من ناحية، ومُساءَلة التحديات والمعضلات التي تَفرِضها العولمة الرأسمالية من ناحية أخرى.

علاوة على ذلك فإن أفكار جيجيك تشتبك مع واقعنا السياسي الراهن في العالم العربي، وثَمَّة نقاشات ثَريّة له حول قضايا العنف، والثورة، والإرهاب، والأصوليات الدينية. ومن هذه الناحية يتميَّز خطابه السياسي بطابع نقدي حاول عن طريقه أن يكشف عن زيف الأقنعة التي تتخفّى وراءها الديمقراطية الأمريكية فيما يتعلق بقضايا نهاية التاريخ، والسلام العالمي، والحرب على الإرهاب، وحقوق الإنسان، وغيرها. بالإضافة إلى قدرة جيجيك الكبيرة- كما سيظهر ذلك خلال صفحات البحث- على استشراف مسار انتفاضات الربيع العربي الأخيرة.

- إشكالية البحثِ:

تكمن إشكاليةُ البحثِ الرئيسة في محاولة الإجابة عن هذا التساؤل: **ما طبيعة المسار الذي يمكن أن تتَّخذه العلاقة بين الأيديولوجيا والثورة؟ وإلى أيِّ مدى يمكن أن تؤثر الأيديولوجيا في مسار الثورة؟**

يتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات المرتبطة بها، ومنها على سبيل المثال- لا الحصر: **كيف استطاع جيجيك أن يبلور مفهومًا خاصًا للأيديولوجيا؟ كيف تتشكَّل الأيديولوجيا؟ وما سماتها وما خصائصها الجوهرية؟ ما الأبعاد والأُطر التي تشتغل**

الأيديولوجيا من خلالها؟ وما دور الخيال، وعلاقات القوة والهيمنة في الأيديولوجيا؟ هل ثَمَّة مستلزمات يقتضي وجودها حتى نكون بإزاء ممارسة أيديولوجية محددة؟ وكيف تؤثر الأيديولوجيا في طبيعة إدراك الأفراد للواقع، وتوجيه مسار أفعالهم؟ ما دور "الأيديولوجيا" في شن الحروب، والتدخل في شئون الدول؟ وما علاقتها بتطور التاريخ؟ وكيف تؤثر في قراءتنا له؟ هل تغير شكل الأيديولوجيا في العالم المعاصر، وفي عصر تكنولوجيا الاتصال؟ ما موقف جيجيك من الفكرة المزعومة التي تروج «لنهاية الأيديولوجيا»؟ وما ملامح الثورة عنده، خاصة في ظل المتغيرات السياسية والاجتماعية المعاصرة؟ وإلى أيٍّ مدى تقيَّد بالأطروحات والرؤى الماركسية حول الأيديولوجيا؟ وما القيمة الحقيقية لأفكاره حول الثورة؟ وكيف يمكن الاستفادة منها في الوقت الراهن؟

- منهج البحث:

للإجابة عن هذه التساؤلات السابقة، سأعتمد على منهجين أساسيين: **المنهج التحليلي** في عرض تصورات جيجيك حول الأيديولوجيا والثورة، والمسائل الأخرى التي تدور في فلكهما، **والمنهج النقدي** بهدف الوقوف على ما تنطوي عليه آراؤه من إيجابيات وسلبيات، وتوضيح مواطن الجدة والأصالة، والتقليد فيها. كما سأعتمد أيضًا على **المنهج التاريخي** من حيث ردُّ أفكار جيجيك إلى أصولها الأولى عند الفلاسفة السابقين عليه، **والمنهج المُقَارَن** من حيث المقارنة بين مواقفه ومواقف غيره من الفلاسفة سواءً السابقين عليه، أو اللاحقين له.

- صعوبات البحث:

ثَمَّة بعض الصعوبات التي واجهتنا عند إجراء هذا البحث، ويقف على رأسها كَثْرة كتابات جيجيك، وهو لا يزال حتى الآن يُضيف إلى أفكاره بصفة مستمرة، ناهيك عن حضوره الواسع في العديد من الدوائر الفكرية والثقافية؛ الأمر الذي فرَضَ علينا الانتقاء من بين هذه الكتابات، مع **مراعاة الموضوعية وعدم التحيُّز** من ناحية، **والتبسيط والعمق والوضوح** من ناحية أخرى، **بما يحقق أهداف البحث المرجوة في الإلمام بجوانب رؤيته الفكرية العامة حول الأيديولوجيا والثورة** من ناحية ثالثة.

- الدراسات السابقة:

على الرغم من أن موضوع الأيديولوجيا والثورة قد حظِي بنصيب لا بَأسَ به من الترجمة في المكتبة العربية، فإن الملاحظ قلة الأبحاث والدراسات العربية عنه. ومن ناحية أخرى، فرغم أهمية إسهام جيجيك في هذه النظرية؛ وهي أهمية تتجلَّى في حضورها في

العديد من الدراسات الفكرية والفلسفية الغربية، حيث كُتب عنها عشرات الكتب وأجريت حولها مئات الأبحاث الأكاديمية (وسيَرِد ذِكر أكثر هذه الدراسات أهمية وصلة بموضوع بحثنا في ثَبْتِ المصادر والمراجع)- رغم أهمية إسهام جيجيك في هذه النظرية، فإن الملاحظ كذلك ندرة الاهتمام في عالمنا العربي بدراسة إسهامه في هذه النظرية، أو غيرها من أفكاره السياسية الأخرى.

- محاور البحث:

رأينا تقسيم هذا البحث إلى أربعة محاور أساسية، ويتضمَّن كل محور مجموعة من العناصر التي نحاول من خلالها الكشف عن مسار العلاقة بين الأيديولوجيا والثورة عند جيجيك. وهذه المحاور على النحو الآتي:

المحور الأول: **المعطيات النظرية العامة للأيديولوجيا.**

المحور الثاني: **آليات الأيديولوجيا ومتطلباتها.**

المحور الثالث: **الليبرالية وحدود العنف الأيديولوجي.**

المحور الرابع: **الثورة والروح الجديدة لرأسمالية «ما بعد الحداثة».**

المحور الأول: المعطيات النظرية العامة للأيديولوجيا.

أولًا: الأيديولوجيا بوصفها ممارسة مادية.

(أ) نقد مفهوم ماركس للأيديولوجيا.

تُعَدُّ الأيديولوجيا مفهومًا أساسيًا في النظرية الماركسية، وهي تشير إلى منظومة القيم، والمفاهيم والتصورات الاجتماعية والسياسية والقانونية التي ترتبط بمصالح طبقة أو جماعة معينة. ولهذا **ساوى ماركس بينها وبين (الوعي الزائف)، مُعتبرًا إياها قناعًا للتعمية Mystification تستخدمه الرأسمالية لتحريف الوعي لدى طبقة البروليتاريا**[1].

على هذا النحو يتركّز نقد ماركس للأيديولوجيا في كونها مجموعة من الأوهام والتخييلات التي تعمل كغطاء لتشويه العلاقات الاجتماعية العادلة. فالأيديولوجيا تنزع إلى تشويه حقيقة الواقع، وهي الحقيقة التي تعمل على حجبها عن الأفراد؛ ولهذا فهي تعمل كوسائل للدعاية المُضَلِّلة من أجل ضمان استقرار النظام الرأسمالي، وتقديم المفاهيم البرجوازية عن الحرية والمساواة والعدل في صورة كلية.

إن هذا المعنى السلبي يتضمَّن القول بأن الأيديولوجيا زائفة لأنها تُمثِّل تحريفًا للتناقضات الطبقية، وتشويشًا للوعي؛ الأمر الذي يجعل منها "عَرَضًا" Symptom من أعراض الوجود الاجتماعي الذي يطرأ على المجتمعات الإنسانية[2]. لكن جيجيك يتحول من هذه النظرة الضيقة للأيديولوجيا بوصفها «وعيًا زائفًا» "False Consciousness" إلى مفهوم آخر ينطلق في أساسه من النظر إليها "كصنم" Fetish من جانب، وبوصفها تشويهًا لإدراك الأفراد للواقع الذي يعيشون فيه من جانب آخر.

من هنا ينصبّ نقد جيجيك لمفهوم الأيديولوجيا عند ماركس على نقطتين على النحو الآتي:

(١) التفرقة بين مضمون الأيديولوجيا وشكلها:

إذا كان ماركس يُركِّز على كون الأيديولوجيا تمثُّلًا زائفًا لا يعكس جوهر التناقضات الاقتصادية (على اعتبار أن هذه التناقضات هي الأساس في تطور التاريخ، ثُم تأتي

---

(١) ماركس، كارل، وفريدريك إنجلز: **الأيديولوجيا الألمانية**، ترجمة: فؤاد أيوب، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٦، ص. ٥٦.

(2) Drucker, H. M.: "***Marx's Concept of Ideology***", *Philosophy*, Vol. 47, No. 180 (Apr., 1972), PP. 152-153.

الأيديولوجيا لتشويهها)، فإن الأيديولوجيا تصبح مُضَادّة لمصالح (البروليتاريا)؛ لأنها تستهدف تشويه طبيعة الواقع الاجتماعي الحقيقي. ومعنى هذا أنه يركز على مضمون الأيديولوجيا، وليس على شكلها أو طريقة عملها.

أما جيجيك فلا يَحصُر الأيديولوجيا في كونها "عَرضًا" (مجرّد تقنيع التناقضات الاجتماعية على نحو يخدم الطبقات البرجوازية)، وإنما يريد أن يوسع دلالة المفهوم بحيث يشير إلى أساس العملية الإدراكية ذاتها التي تربط الأفراد بمختلف العلاقات الاجتماعية المادية وغير المادية، عبر تشكلاتها التاريخية والسياسية والاقتصادية المختلفة، وبحيث لا تكون الأيديولوجيا- بهذا المعنى- مجموعة أوهام أو مضامين فكرية زائفة، بل تصبح تشويهًا وفسادًا في طريقة إدراك الأفراد لواقعهم، وتمتدّ إلى عملية تبرير وإضفاء المشروعية على العلاقات الاجتماعية المسيطرة ونمط الإنتاج الاقتصادي، وهو طابع كامن في الوظيفة الإدماجية للأيديولوجيا ذاتها، وعلى حدّ قوله:

«ليست الأيديولوجيا مجرّد تصورات فكرية تُخفي وراءها الطابع الصنمي للسلع الذي يقوم عليه الاقتصاد السياسي الكلاسيكي للطبقات البرجوازية؛ لأن ذلك من شأنه أن يجعلنا غير قادرين على تفسير السر الحقيقي وراء هذا الشكل ذاته من التسليع»[1].

معنى هذا أن الأيديولوجيا ليست انعكاسًا زائفًا لوضع اجتماعي- اقتصادي معين، ولهذا يكشف جيجيك عن التضارب بين المذاهب المثالية والمادية في النظر إلى طبيعة الأيديولوجيا، محددًا الصراع القائم بينها في أن المثالية تحاول أن تطرح نفسها كفلسفة كلية (شمولية) لا زمانية تهتم بانبثاق الأفكار المتجاوزة للحس دون الالتفات إلى التاريخ وظروفه، أو مادة الحقيقة وشروطها، في حين ترى المادية أن كل حقيقة لا يمكن أن تكون كلية؛ لأنها محكومة بمحددات التاريخ والواقع المادي[2].

من ناحية أخرى يحاول جيجيك أن يُسقِط هذا التقسيم لمضمون الخبرة الإنسانية إلى مستويات منفصلة مكونة من: "أفكار" Ideas، و"مادة" Matter، و"تمثيل" Representation لإحداهما أو للأخرى. فهو لا يرى الأيديولوجيا تمثُّلًا لأفكار زائفة أو وهمية، كما لم تَعُدْ تتوسط بين دائرة مثالية وأخرى مادية، بل أصبحت تمتدّ إلى نطاق

---

(1) Žižek, Slavoj: ***The Sublime Object of Ideology***, London & New York: Verso, 2nd. ed., 2008 (1989), P. 8.

(2) Žižek, Slavoj: ***The Parallax View***, Cambridge: MIT Press, 2006, P. 166.

الممارسة العملية وكذلك إلى عقول البشر ذاتها. ولذلك فهو ينظر إلى التمثُّل الأيديولوجي في ضوء التحول الصنمي "Fetishistic Inversion" للأشياء، وتأثيره في عقول الأفراد، بالإضافة إلى أفعالهم وممارساتهم(١).

تشير الأيديولوجيا عند جيجيك إلى التأثير الناجم عن صنمية السلع في الاقتصاد الرأسمالي في كيفية إدراك الأفراد لواقعهم. وليس ثَمَّة أيديولوجيا تتألف من أفكار خالصة، كما أنه ليس ثَمَّة أيديولوجيا تتألف من انعكاسات مادية فقط. ولذلك يُحدِّد جيجيك الأيديولوجيا بأنها: «مصفوفة فكرية تُنظم العلاقة بين المرئي واللامرئي، بين المُتخيَّل وغير المُتخيَّل، كما تُنظم التغييرات في هذه العلاقة»(٢).

من هنا فإن الأيديولوجيا قوة توجيه منعكسة في عقول البشر، وكذلك في ممارساتهم المادية، وجيجيك بذلك يتفق مع «جرامشي» Antonio Gramsci (١٨٩١-١٩٣٧)، الذي رفض القول بأن الأيديولوجيا مجرّد تشويه للواقع أو انعكاسات زائفة تُمرِّر الطبقة الحاكمة من خلالها مصالحها. وبدلًا من ذلك يراها مجموعة من الأفكار والمعاني والقواعد وطرق السلوك العملية التي يعيش الأفراد من خلالها واقعهم، أو ما يسميه جرامشي «الحس المشترك» "Common Sense". وهو الأمر الذي من شأنه أن يجعل الأيديولوجيا تأخذ أشكالًا مختلفة، وهذا يعني أن كل مجتمع يتضمَّن أيديولوجيات متنافسة تقاتل من أجل أن تحوز على الموافقة الاجتماعية(٣).

(٢) من الأيديولوجيا "كعَرَض"، إلى الأيديولوجيا "كصنم".

يذهب جيجيك إلى أن الأيديولوجيا ليست تجسيدًا لتصورات فكرية زائفة من منظور أنها لا تطابق الواقع المادي، كما أنها ليست تجسيدًا مباشرًا لمصالح الطبقة الحاكمة، ومن ثَمَّ فهي ليست قِناعًا ضد طبقة أو فئة بعينها، وإنما هي "بنية علائقية" مميزة تتألف من "شكل" مستقل يحوي "مضامين" كثيرة ومختلفة نابعة من الواقع المادي نفسه، وعلى حدّ

---

(1) Hawkes, David: ***Ideology***, London & New York: Routledge, Second Edition, 2003, P. P. 167, 168.

(2) Žižek, Slavoj: "***The Spectre of Ideology***", in: idem (ed.), *Mapping Ideology*, London: Verso, 1994, P. 1.

(3) Lloyd, Moya: "***The End of Ideology***", in: Robert Eccleshall, and Others (eds.), *Political Ideologies: An introduction*, London & New York, 3rd ed., 2003, P. 231.

تعبيره: «الأيديولوجيا ذات طبيعة مادية، وتشتغل على نحو فعّال على المستوى الاجتماعي- الاقتصادي»[1].

معنى هذا أن الأيديولوجيا ليست مجرّد مجموعة من الأفكار المفارقة التي تنزع إلى تشويه الواقع، وإنما هي ذلك الأساس في علاقاته الكلية بالواقع القائم، وبهذا المعنى، فإن النقد الماركسي للأيديولوجيا لا يتعدى النظر إليها على أنها "عَرضٌ" زائفٌ؛ لأنه لا يهتم سوى برصد جوانب الانفصال **المُتَبَاينة** بالنسبة للمجال الاقتصادي ذاته، وفي الوقت نفسه جوانب الانفصال **الضرورية** لذلك المجال لتحقيق حِصَاره وسيطرته التامة على الأفراد[2].

وهكذا يتحول جيجيك في نظرته للأيديولوجيا من كونها وعيًا زائفًا، إلى كونها ممارسة مادية يداوم الأفراد عليها؛ أي أنه يتحول من "**المعرفة**" إلى "**الفعل**"- من "**معرفة الأفراد**"، إلى "**ما يفعلونه**". **فإذا كان ماركس يؤكد أن الرأسمالية تُنتج وعيًا زائفًا في أذهان البروليتاريا بحيث تفعل ما لا تعيه، فإن جيجيك يرى الأيديولوجيا تُقدِّم نفسها "كصنم"، وتُجسِّد باستمرار «وعيًا زائفًا» لكن من حيث "الطريقة" التي تنظر البروليتاريا من خلالها إلى الواقع، وبحيث تخدع نفسها وهي واعية بذلك، كما لو كانت قد اِرتضت بواقعها دون محاولة الشك فيه أو مُساءَلة الأصول التي ينبني عليها.**

من هنا يحاول جيجيك أن يحطم هذه المعادلة التقليدية: **(الأيديولوجيا= الوعي الزائف)**؛ فوفقًا له صارت مُضَلِّلة، وعديمة الجدوى منذ اللحظة التي اكتشفنا فيها أن الأيديولوجيا ماثلة أساسًا في ممارسات الأفراد وطريقة إدراكهم للواقع. وبعبارة أخرى، فهي ليست تحريفًا للواقع، وإنما هي قوة تؤثر سلبًا في إدراكنا للواقع القائم، وتُضفي المشروعية عليه. يقول جيجيك مؤكدًا هذا المعنى للأيديولوجيا:

«**تُجسِّد الأيديولوجيا الواقع، وليست مجرّد تمثُّل وهمي للواقع. ومن ثَمَّ يتعيَّن النظر إلى الواقع ذاته على أنه قوة تُدخِل في مسار وعينا مجموعة من الأوهام- أيّ أنه مُتجسِّد في قالب أيديولوجي- أو أن "هذا القالب الأيديولوجي يُمثِّل واقعًا اجتماعيًا- اقتصاديًا معينًا يزعم الخاضعون له (المحكومون) أنهم لا يعرفون جوهره"؛ وهنا تكمن السخرية الأيديولوجية؛ أعني الفعالية الاجتماعية الأعمق للأيديولوجيات السياسية والمتمثلة في إعادة استنساخ الواقع بصورة تبرهن على أن الأفراد "يعرفون ما يفعلون". ومن هذه**

---

(1) Žižek: ***The Sublime Object of Ideology***, P. 34.

(2) Ibid, P. 16.

الناحية، "ليست الأيديولوجيا وعيًا زائفًا بطبيعة الواقع، وإنما هي ذلك الواقع نفسه بقدر ما يدعمه "الوعي الزائف"»[1].

(ب) الأساس المشترك للأيديولوجيا:

تُمثِّل الأيديولوجيا ظاهرة "كلية ملموسة" "Concrete Universality" بالمعنى الهيجلي الذي يشير إلى أن الأفكار نفسها تتّخذ شكلًا محسوسًا؛ بحيث يتضاعف العالم المحسوس، كما لو أننا أمام عالمين غير منفصلين: عالمنا المحسوس المعتاد، بجانب عالم آخر يتألف من "المادية الروحية" "Spiritual Materiality" (الأشياء الجميلة) التي تقف وراء سلوكنا المادي نفسه[2].

على هذا النحو فبدلًا من التعريف الكلاسيكي للأيديولوجيا بأنها وعي زائف من شأنه أن يجعل البشر ينساقون مع النظام الرأسمالي غافلين عن كونهم مستغَلّين؛ أي بدلًا من الصيغة التي تعمل في إطار من: "**إنهم يجهلون ما يفعلون**"، نجدها تُمثِّل **قوة للخداع تستهدف توجيه ممارسات البشر وطريقة إدراكهم للواقع**؛ أي أنها تتجسَّد في صياغة تتألف من: "**إنهم يعرفون جيدًا ما يفعلون، ومع هذا يفعلونه**"[3].

وانطلاقًا من تمييزه بين "**الاعتقاد**" من جانب و"**الفكر**" من جانب آخر، يذهب جيجيك إلى أن **الخداع الأيديولوجي يشتغل على مستوى اعتقادات الأفراد، وليس على مستوى فكرهم ووعيهم**، ويوضح ذلك بأنه إذا كان الأفراد يوافقون طوعًا على الالتزام بالترتيبات الأيديولوجية لأنهم يعتقدون أنه في مصادقتهم عليها سوف تعبر عن ذواتهم الحرة، فإن قوة الأيديولوجيا تنعكس من ثَمَّ في مواقف الأفراد الخاضعين الذين يعرفون جيدًا أن الأيديولوجيا ما هي إلا زيف، ومع ذلك يلتزمون بها كمسألة اعتقاد؛ لأنها ستشبع رغباتهم، على نحو ما يَذكر "باسكال" و"ألتوسير" من أن الاعتقاد لا علاقة له بالعقل ولا بالمعرفة، وإنما بالمتعة الناجمة عن مجرّد التعود، والاعتماد على العاطفة[4].

(**1**) Ibid, PP. 15–16.

(**2**) Žižek, Slavoj: ***Tarrying with the Negative: Kant, Hegel and the Critique of Ideology***, Durham, N.C.: Duke Univ. Press, 1993, P. 138.

(**3**) Žižek: ***The Sublime Object of Ideology***, P. P. 24, 30; Žižek, Slavoj: "***How Did Marx Invent the Symptom?***", in: idem (ed.), *Mapping Ideology*, op. cit., P. 312.

(**4**) Žižek: ***The Sublime Object of Ideology***, PP. 34–35.

تأسيسًا على ذلك، فإن الأيديولوجيا لا تتمثل في تزييف الأفكار، أو تغييب الوعي، بقدر ما تتجسَّد في الاعتقاد وعلى مستوى العملية الإدراكية عند الممارسة، وقد أكد جيجيك على ضرورة النظر إلى الأيديولوجيا على أنها تشتغل أساسًا من خلال "سوء التقدير" Misrecognition للواقع[١]، كما هو الحال- على سبيل المثال- بالنسبة لرجل الأعمال الذي يعتقد في قرارة نفسه أن استثماراته مجرّد لعبة يشارك فيها، ولكنه يعتقد أيضًا أن "ذاته الحقيقية" تعبِّر عن نفسها في التأمل الروحي الذي يمارسه بانتظام. إنه لا يدرك أن "ذاته" هذه مجرّد وهم تُمكِّنه من استمرار نشاطه الاقتصادي؛ فهو مثل اليهودي الذي لا يؤمن بأن هناك إلهًا، ومع هذا فإنه يُطيع قواعد الشّريعة اليهودية في المأكل والملبس[٢]!

لكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن لأول وهلة: **لماذا ينساق الأفراد وراء الأيديولوجيا، رغم أنهم يعرفون أن واقعهم ذو طابع أيديولوجي يستهدف الإبقاء على خضوعهم واستغلالهم؟**

يجيب جيجيك عن هذا السؤال بأن النقد التقليدي للأيديولوجيا يُركِّز على المطابقة بينها وبين الأفكار المسيطرة التي تؤسس للواقع، ومن ثَمَّ فالأيديولوجيا من هذا المنظور تعمل على تزييف الواقع، وهو التزييف الذي يجعل الأفراد "**لا يعرفون ما يفعلونه فعلًا**"؛ الأمر الذي يجعلهم يكتسبون تمثيلًا خاطئًا عن واقعهم المعيش. لكن الأيديولوجيا تعمل أساسًا على تحريف عملية إدراك الأفراد لواقعهم، وليس تحريف الواقع ذاته، وهي تستهدف- ضمن ما تستهدف- جعل البشر مُتيَّمين (صنميين) Fetishists على مستوى **الاعتقاد** وفي **ممارساتهم**، وليس عند مستوى الوعي والإدراك النظري للواقع[٣].

ويوضح جيجيك ذلك بعملية تبادل السلع عند ماركس بوصفها نشاطًا اجتماعيًا يوجه الأفراد؛ فالأوهام الأيديولوجية هنا لا تتمثل في جانب معرفتهم بجوهر هذه العملية، وإنما تكمن في مستوى نظرتهم للسلع ذاتها. وما يجهلونه هو أن واقعهم الاجتماعي ذاته تسيطر عليه الأوهام، ويتحكم فيه الانقلاب أو التحول الصنمي. ومن هنا **فإن ما لا يدركونه لا**

---

(1) Žižek, Slavoj: ***Looking Awry: An Introduction to Jacques Lacan through Popular Culture***, Cambridge, Massachusetts: The MIT Press, 1991, P. 44.

(2) Žižek, Slavoj: "***Neighbors and Other Monsters: A Plea for Ethical Violence***", in: idem, *The Neighbor: Three Inquiries in Political Theology*, Chicago: University of Chicago Press, 2005, P. 179.

(3) Žižek: "***How Did Marx Invent the Symptom?***", PP. 314-315.

يتمثل في مدى صحة الفكرة التي تَدفعهم إلى الفعل، وإنما في الأوهام التي تؤسس لواقعهم ذاته، وطريقة إدراكهم لهذا الواقع[١].

يمكن القول إذن إن جيجيك يحاول أن يتجاوز الفهم الماركسي للأيديولوجيا الذي يشتغل أساسًا على نقد مضمون المفاهيم والتصورات الأيديولوجية، ويرى ضرورة التركيز على سرّ الشكل ذاته الذي تتخذه الأيديولوجيا. فبالنسبة له، لم تَعُدْ الأيديولوجيا مجموعة من التصورات الزائفة، وإنما تحولت إلى كونها ممارسة عملية على أرض الواقع. وهذا "**التحول المادي للأيديولوجيا**" (Materialization of Ideology) يمكن ملاحظته بالنسبة لسطوة المال وتحكمه في البشر؛ حيث أصبح تجسيدًا لعملية التحول المادي لشبكة العلاقات الاجتماعية، وصار يتحكم في نسيج العلاقات الإنسانية كلها[٢].

إن دراسة الأيديولوجيا من هذا المنظور تضعنا إزاء عملية من التحول المادي للأيديولوجيا؛ حيث لم تَعُدْ تؤثر في الأفكار والتصورات فقط، بل أضحت تؤثر في أسلوب النظر إلى الأشياء. كما لم تَعُدْ الأفكار أو الخطابات هي أدوات الأيديولوجيا، بل أصبحت أدواتها مادية مثل أجهزة الإعلام. ولم تَعُدْ الأيديولوجيا كذلك تنتشر من خلال الكلمات، بل عن طريق الصور والرموز والعلامات، وهو الأمر الذي يجعلها تتخفّى وراء أشياء أخرى[٣].

كذلك فإن هذا التحول المادي للأيديولوجيا يقودنا إلى ضرورة التحول من المفاهيم التقليدية مثل "الاغتراب"، و"التَّشَيؤ" (Reification)، إلى مفاهيم أخرى مثل "الدالّ" (Signifier) و"المدلول" (Signified)، و"العلامة،" و"الصورة"، و"الرمز". وهذا التحول يُعَدُّ انتقالًا من نقد الأيديولوجيا المرتكز على إبستمولوجيا ماركسية هيجلية إلى إبستمولوجيا أخرى ما بعد بنيوية (Post-Structuralist). كما أن هذا التحول يقود بالضرورة إلى تغيير مماثل في موضوع الأيديولوجيا؛ حيث تتحول من كونها تزييفًا مباشرًا لمضمون الوعي إلى كونها تزييفًا لطريقة الإدراك ذاتها. فلم يَعُدْ التزييف يتم على مستوى الفكرة، أو العلاقة المعرفية الواعية بين الذات والموضوع، بل على مستوى عملية إدراك العلامة (الصورة) التي تشير إلى الموضوع (الواقع)، أو "الدالّ" الذي يشير إلى "المدلول"[٤].

---

(1) Ibid, PP. 315-316.

(2) Žižek: ***The Sublime Object of Ideology***, P. 27.

(٣) منصور، د/ أشرف: «**الأيديولوجيا في عصر تكنولوجيا الاتصال**»، مجلة "الفلسفة والعصر"، العدد الثاني، تصدر عن المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة، يناير ٢٠٠٢، ص. ٢٠٣.

(٤) المرجع السابق، ص. ٢١١.

(ج) البعد الصنمي للأيديولوجيا.

إذا كان نقد ماركس لنمط الإنتاج الرأسمالي ينصبّ على كونه ينتج عنه تحويل العلاقات بين الأشخاص إلى "علاقات بين أشياء"؛ أي إلى علاقات مباشرة وغير مباشرة للاستغلال، فإن جيجيك يُحدِّد شكلين من أشكال الصنمية: الشكل الأول وقد حدث في المجتمعات السابقة على ظهور الرأسمالية (المجتمعات الإقطاعية)؛ حيث إن صنمية السلعة لم تتطور بعد، لأن الإنتاج كان لا يزال إنتاجًا طبيعيًا لا يحكمه السوق. أما الشكل الآخر من الصنمية فيحدث في المجتمعات الرأسمالية التي لا تزال قائمة حتى الآن؛ حيث تسود صنمية السلعة تمامًا، وتسيطر على مجمل العلاقات الإنسانية[١].

تتَّسم العلاقات الإنسانية في الحالة الأولى بوجود حالة من العبودية؛ حيث نجد أن (السيد) هو ملك لا لسبب سوى أن رعاياه يرون أنفسهم في علاقتهم به، وهو يَلقَى معاملة مَلكية لأن المحكومين **يعتقدون** أنه ملك، ولا يدركون أنه من دونهم لن يكون إلا مجرّد شخص عادي؛ فهو لا شيء إذا ما وضع خارج شبكة العلاقات الاجتماعية. كذلك الأمر في المجتمعات الرأسمالية، باستثناء أن الأشياء تحلّ محل البشر. ومن هنا، فإن انسحاب "السيد" (الإقطاعي) في ظل الرأسمالية لم يكن إلا انزياحًا من حيث **المضمون**، وليس تغييرًا في **الشكل والطبيعة**: فقد استُبدلت صنمية العلاقات بين البشر بصنمية العلاقات بين الأشياء. وهكذا ففي الرأسمالية، يتم كبت علاقات السيطرة؛ وإذا كان البشر يَبدُون كأفراد أحرار متحررين من السلطة العلنية لحاكم ديكتاتور، فإن الحقيقة المكبوتة (استمرار السيطرة على نحو محتجب) كامنة في صنمية السلع التي تسيطر على مجمل علاقاتهم الاجتماعية والإنسانية[٢].

من هذا المنطلق، يستعيد جيجيك التحليلات الماركسية "**لصنمية السلع**" "Fetishism of Commodities"، ويقارب من خلالها التحول الصنمي للسلع والنقود في ظل الرأسمالية؛ حيث يبدو الإنسان وكأنه "آلة" تُمثِّل مفتاحًا نظريًا لفهم وتفسير الظواهر الطبيعية. وبعبارة أخرى، يتعامل الأفراد مع السلع والنقود كأصنام في ذاتها، رغم أنهم على وعي بأن جوهر العلاقات بين البشر مختلف في أساسه عن العلاقات بين السلع والأشياء[٣].

(**1**) Žižek: ***The Sublime Object of Ideology***, P. 163.

(**2**) Ibid, PP. 163-164.

(**3**) Ibid, P. P. 9, 28.

تظهر قوة الأيديولوجيا إذن في نظرة الأفراد للأشياء، والمال؛ وبحيث يكون المال في ذاته صنمًا يقفون أمامه في وضعية مقدسة. إن "صنمية السلعة" وفقًا لماركس، وكذلك وفقًا لما يراه "جورج لوكاش"، هي السمة النوعية المميزة للرأسمالية. أي أن صنمية السلع هي مشكلة أيديولوجية مركزية حاسمة في النظام الرأسمالي، لأنه ينتج عنها التشيؤ، وهو يعني تَحوُّل كل شيء، بما في ذلك العلاقات الاجتماعية إلى ما يشبه علاقات بين أشياء وسلع تُباع وتُشترى في الأسواق؛ الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى خلق علاقات آلية، ومعاملة الناس بوصفهم موضوعًا للتبادل(١).

من هنا فإن الأفراد في ظل الرأسمالية يتعاملون مع بعضهم بعضًا مثلما يتعاملون مع النقود، وبذلك تتحول العلاقات الاجتماعية بينهم إلى علاقات بين أشياء. ولذلك فإن التحول في هذه العملية يتمثل في تحديدهم للسمات الكاريزمية في الملك ليس بوصفها سمات يمتلكها شخص الملك، وإنما بوصفها «**تحديدًا انعكاسيًا**» "Reflexive Determination"، وهذا التحديد نابع من الموافقة القسرية من جانب الأفراد الخاضعين، الأمر الذي يجعل من ذلك أثرًا فعّالًا في طقوسهم الرمزية(٢).

كذلك فإن هذه العملية للتحول الصنمي للأشياء تؤدي إلى تمويه العلاقة الاستغلالية في النظام الرأسمالي، وتحريف الشروط الواقعية للحياة الإنسانية والاجتماعية العادلة، كما تؤدي في الوقت نفسه إلى تجريد الإنسان، وخضوعه، وجعله ذاتًا مفارقة، وإن مثل هذا التجريد يُمثِّل شكلًا من أشكال اللاوعي بالذات المفارقة(٣).

ومما له دلالة نظرة جيجيك إلى "البوذية" كصنم، واعتبارها إحدى المقومات الأساسية لذاتية المُتعة اللامحدودة وروحانيتها على الطريقة الليبرالية؛ حيث تُتيح المشاركة في الممارسة الاستهلاكية المطلقة العنان؛ لأنها تغرس فينا اعتقادًا بأن الواقع الذي نعيشه ليس هو الواقع الحقيقي، وتغذي فينا فكرة أن الحقيقة المطلقة داخلية، ونستطيع الوصول إليها بالانفصال الذهني، والانسحاب عن المشاركة في الواقع. وهنا نلاحظ أن الصنم يعمل

---

(١) لوكاش، جورج: **التاريخ والوعي الطبقي**، ترجمة: حنا الشاعر، بيروت: دار الأندلس، ط. ٢، ١٩٨٢، ص. ص. ٨٠، ٨٢.

(2) Žižek: ***Looking Awry: An Introduction to Jacques Lacan***, P. 33.

(3) Žižek: ***The Sublime Object of Ideology***, P. 11.

بطريقتين متقابلتين: فمن جانب، يظل دوره محجوبًا عن الإدراك، ومن جانب آخر، في اعتقاد الأفراد بأن الصنم يُمثِّل جوهر الأمور التي يعيشونها في الواقع[١].

كذلك تشتغل الأيديولوجيا في العالم المعاصر بطريقة "صنمية"، كمقابل لنموذجها التقليدي "العرضي". فإذا كان الخداع الأيديولوجي، في النموذج الرأسمالي التقليدي، يُمثِّل "عرضًا" يؤسس لإدراكنا للواقع، وهو عرضٌ مهدد دائمًا بالانهيار نظرًا لما يَحمله المقهورون من خبرات مؤلمة ومكبوتة في نسيج الخداع الأيديولوجي ذاته، فإن "الصنم"، في النموذج الرأسمالي "الما بعد حداثي"، يشتغل كنوع من "تحول للعرض". وهذا يعني أنه إذا كان "العرض" في النموذج الأول هو الشيء الذي يَحول دون السير الطبيعي للأشياء، والاستثناء الذي يزلزل المظاهر الزائفة، أو النقطة التي تتفجَّر عندها علاقات السيطرة والعبودية، فإن "الصنم" في النموذج الرأسمالي "الما بعد حداثي" يُمثِّل تجسيدًا للكذب والخداع الذي يجعلنا نتحمل ثقل الحقيقة، والذي من شأنه أن يعمل على تعزيز واقع لا يمكن تحمله[٢].

وفي تقريبه لهذين الشكلين للأيديولوجيا، يضرب جيجيك مثالًا بالإنسان الذي أُصيب بفقدان شخص عزيز عليه: ففي حالة "**العرض**"، يقوم الإنسان "بكبح" آثار الموت، ويسيطر على حالته النفسية السيئة، ويحاول عدم التفكير في موته. أما في حالة "**الصنم**"، فعلى العكس من ذلك، نجده يقبل بعقلانية تامة الموت، ولكنه مع هذا يتشبَّث بالصنم كخاصية تُجسِّد بالنسبة له التنصل من الموت. وبهذا المعنى، يمكن للأيديولوجيا أن تقوم بدور فعّال عن طريق السماح للأفراد بالتأقلم مع الواقع[٣].

---

(1) Žižek, Slavoj: ***First as Tragedy, Then as Farce***, London & New York: Verso, 2009, P. 66.

وهناك ترجمتان باللغة العربية لهذا الكتاب، وقد صدرتا معاً في عام ٢٠١٥. الأولى بعنوان: **(تراجيدية في البداية .. هزلية في النهاية)**، ترجمة: غادة الإمام، وقد صدرت عن المركز القومي للترجمة في القاهرة. والأخرى بعنوان: **(بداية كمأساة، وأخرى كمهزلة)**، ترجمة: أماني لازار، وقد صدرت عن دار طوى للثقافة والنشر في لندن. لكننا آثرنا الاعتماد على النص الأصلي؛ لسببين: أولهما رغبتنا في انسجام لغة البحث مع ترجمتنا لنصوص جيجيك، والآخر (وهو المهم) ما يظهر من التباس وغموض في هاتين الترجمتين؛ كما في ترجمة مصطلح (Self-Determination) إلى "الحتمية الذاتية" حينًا، و"الجبرية" حينًا آخر، رغم أن جيجيك يقصد بها «التحديد الذاتي».

(2) Ibid, P. 65; Žižek, Slavoj: ***On Belief (Thinking in Action)***, New York: Routledge, 2001, P. 13.

(3) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 65; Žižek, Slavoj: ***Enjoy Your Symptom! Jacques Lacan in Hollywood and out***, London & New York: Routledge, 1992, P. 14.

على هذا النحو فإن الأيديولوجيا ليست حلمًا يبتعد عن الواقع؛ بل هي تجسيد للواقع ذاته. ولهذا يشير جيجيك إلى أن الأيديولوجيين "ما بعد الحداثيين" ليسوا أناسًا حالمين فشلوا في عوالمهم الخاصة، بل إنهم مغالون في "الواقعية" إلى أقصى حد، وقادرون على قبول الأشياء كما هي عليه لأنه من خلال التشبُّث بأيديولوجيتهم الليبرالية يستطيعون تخفيف وتسكين التأثير الصادم للواقع القاسي(١).

من هذا المنطلق، يمكن القول إن الأيديولوجيا تعتمد على نواة غير محددة من المتعة. ومن أجل تحقيق أهدافها، تنزع إلى إنشاء كِيان خيالي على أرض الواقع لكي تجعله "دالًا". ولذلك فإنها تمثل خطابًا، أو مجموعة متسلسلة من العناصر التي تتحدد معانيها ودلالاتِها الخاصة عن طريق صياغتها. والصياغة الرئيسة لأي أيديولوجيا تُمثِّل "وحدة عَقَدِية" "Nodal Point" (بمعنى «الحاكم الدالّ» Master Signifier عند "جاك لاكان") تحدد العناصر الأخرى وتجمعها في حقل متجانس(٢).

كذلك يذهب جيجيك إلى أن الطريقة التي تعمل بها العناصر الأيديولوجية الأخرى تتمثل في تحديد هوية الأفراد، وتعزيز علاقات الهيمنة. على سبيل المثال، فإن "الشيوعية" تعمل "كوحدة عقدية" تحدد دلالة جميع العناصر الأيديولوجية الأخرى: "فالحرية" تصبح هي "الحرية الفعالة" في مقابل "الحرية الشكلية" التي لا تستفيد منها إلا الطبقات البرجوازية وحدها، و"الدولة" تصبح "وسيلةً لقمع الطبقات، وهكذا(٣). وفي حالة الأيديولوجيا النازية، نجد أن "اليهود" يُمثِّلون العنصر "الواقعي" فيها؛ أو الشبح الذي يتم استحضاره من أجل إخفاء التناقضات الاجتماعية والعداوة الحقيقية المؤسِّسة "للواقع"– أي إن صورة اليهودي تُمكِّننا من إدراك "الكل الاجتماعي" (Social Totality) بوصفه "كلًا عضويًا"(٤).

وهكذا ينظر جيجيك إلى الأيديولوجيا بوصفها ممارسة مادية من ناحية، ومن ناحية أخرى بوصفها خطابًا لا يستهدف الإدلاء بتصريحات صحيحة أو خاطئة عن الواقع، بقدر ما إن مهمته هي توجيه إدراك الأفراد وسلوكهم تجاه الواقع. وكما يوضح «**ديفيد هوكس**» (David Hawkes): «**ليست الأيديولوجيا عند جيجيك شيئًا يؤثر فقط في أفكارنا، بل هي**

---

(1) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 65.

(2) Žižek: ***Looking Awry: An Introduction to Jacques Lacan***, P. 129.

(3) Loc. Cit.

(4) Žižek, Slavoj: ***Welcome to the Desert of the Real! Five Essays on September 11 and Related Dates***, London & New York: Verso, 2002, P.32.

شيء يُحيط بمجمل وجودنا، بما في ذلك ممارساتنا المادية. ومن هنا فإنه لا يمكن النظر إليها على أنها وعي زائف، أو على أنها سوء فهم متعمد للواقع، وإنما يجب النظر إليها كقوة تشويه في الشكل الذي اتخذه "الواقع" ذاته»[١].

إن الأيديولوجيا تشتغل على الجانب العملي، وهي توجيه يعكس التخييلات المفروضة على الأفراد، وهنا يبدو تأثير «**ألتوسير**» (Louis Althusser) (١٩١٨-١٩٩٠) واضحًا في جيجيك، حيث إن الأيديولوجيا- وفقًا لألتوسير- هي "**الدالّ**"، أو البنية الجوهرية الخاصة في تاريخ المجتمعات البشرية، وتتألف من مجموعة من الصور والتمثُّلات (أساطير، وأفكار أو تصورات)، وهي لا تُعبِّر عن علاقة الناس مع ظروف عيشهم، بل عن **الكيفية** التي يعيشون بها في تلك الظروف، علاوة على أنها تَفرِض نفسها عليهم وفقًا لعمليات يجهلون **مدلولها**[٢].

كذلك فقد ذهب ألتوسير إلى أن النظام الرأسمالي يتجه إلى إعادة إنتاج نفسه بمرور الوقت، ومن أجل أن ينجح في ذلك، فإنه من الضروري عدم تركيزه فقط على الربح هنا والآن، بل يتعيَّن وجود بعض الشروط، كأن يهتم بشكل متواصل بتدريب العمال، وأن يكون لدى الرأسماليين أنفسهم وسائل لتعزيز حقوقهم في الملكية، وما إلى ذلك. ولهذا فقد رأى ألتوسير أن النقد الماركسي للأيديولوجيا غيُر كافٍ؛ لأن الأفكار ذاتها ليست سوى ظواهر ثانوية، ومن ثَمَّ يجب علينا أن نركز على نقد المؤسّسات التي تتجسَّد فيها الممارسات المادية، مثل المدارس، ودُور العبادة، والأسرة، وهي التي يدعوها «**بجهاز الدولة الأيديولوجي**»، والتي تعمل كوسائل للإقناع، أو "القوة المرنة"، جنبًا إلى جنب مع السلطة القسرية للدولة (القوة القمعية للشرطة والبوليس). فهذان الجانبان للبناء الفوقي يعملان معًا لتدعيم الوجود المستمر لنمط الأيديولوجيا والإنتاج السائد[٣].

كذلك فمن الملاحظ أن الأيديولوجيا عند جيجيك تشتغل على اللاوعي؛ لأن العلاقة الأيديولوجية لا تتجسَّد عن طريق الاختيار الطوعي للأفراد مع الواقع المحيط بهم. وقد عبَّر «**فيرجوس براون-أوبرني**» (Fergus Brown-O'Byrne) عن ذلك قائلًا: «لا تقتصر الالتزامات الأيديولوجية على شيء ذي أهمية واضحة، مثلما نجد في الاعتقاد الديني؛ لأن

---

(1) Hawkes, David: ***Ideology***, PP. 168-169.

(2) Althusser, Louis: ***For Marx***, trans.: Ben Brewster, London: Allen Lane, The Penguin Press, 1969, P. 231.

(3) Kotsko, Adam: ***Žižek and Theology***, London: T & T Clark, 2008, P. 23.

الخاضعين أنفسهم ليسوا على دراية بهذه الالتزامات وبما تنطوي عليه، ومن ثَمَّ فإن العلاقة الأيديولوجية ليست مسألة اختيار واعٍ»[١].

إن الأيديولوجيا تعترف بالواقع، وتتجاهله في الوقت نفسه. وإذا كان ماركس لا يرى الأيديولوجيا سوى أنها تُجسِّد وعيًا زائفًا بالواقع الاجتماعي- الاقتصادي، فإن جيجيك يراها مُتجسِّدة في اللاوعي، وهو في ذلك يتفق أيضًا مع ألتوسير، الذي ذهب إلى أن الأيديولوجيا تنتمي إلى مجال "اللاوعي"، ولا علاقة لها "بالوعي". فالأيديولوجيا تحول (وعي) الناس بواقعهم الاجتماعي إلى وعي (خيالي). وإذا كانت الأيديولوجيا نسقًا من التمثُّلات، فإن هذه التمثُّلات في معظم الحالات لا ترتبط "بالوعي": فهي عادة ما تكون صورًا وأحيانًا مفاهيم يتم فَرْضها على الأغلبية المستغَلّة دون أن تمر بوعيهم؛ الأمر الذي يجعل من الالتزامات الأيديولوجية مجموعة من التمثُّلات الخيالية والعلاقات اللاواعية بين الأفراد وبين الواقع الذي يعيشون فيه، حتى عندما تظهر هذه التمثُّلات وهذه العلاقات في صور واعية[٢].

يُمثِّل هذا الانتقال للأيديولوجيا من كونها "عَرضًا" إلى كونها "صنمًا" إحدى السمات المميزة لفلسفة جيجيك السياسية. ورغم أن الأفراد يعرفون أن الأيديولوجيا تستهدف استغلالهم وتشويه إدراكهم، فإنهم مع هذا ينساقون وراءها. إن موقفهم يشبه موقف الإنسان المُتيَّم أو المغرم بشيء ما، رغم أنه يعرف جيدًا أن هذا الشيء مجرّد وهم وسراب!

نخلص مما سبق إلى أن الأيديولوجيا لا تشتغل على تحريف الوعي بقدر ما تعمل على تزييف طريقة الإدراك للواقع؛ لأنه إذا كان الأفراد لا يؤمنون بالتخييلات الأيديولوجية، فإنهم مع هذا ينساقون وراءها لأنها تَجلُب لهم نوعًا من المتعة، أو لاعتقادهم بأنها ستحقق أحلامهم! وهنا تتمثل السخرية الأيديولوجية في الانفصام بين الاعتقاد والممارسة، الأمر الذي يجعل الأيديولوجيا تضع الأفراد في قالب محدد تسير عليه ممارساتهم. وإذا تساءلنا: أين تكمن الأيديولوجيا على وجه التحديد؟ هل تتمثل في مضمون الأفكار، أم في بنية النظام ذاته؟ سنجد أن جيجيك يجيبنا بقوله: «**إن المعنى الأيديولوجي لفكرة ما لا يكمن في الفكرة ذاتها، بل يتوقف على الطريقة التي "يتم النظر من خلالها إليها"**»[٣].

---

(1) Brown-O'Byrne, Fergus: "***Ideology and Low Intensity Democracy***", *M. A. Thesis in Philosophy*, School of Graduate Studies, Memorial Univ. of Newfoundland, 2011, PP. 14-15.

(2) Althusser, Louis: ***For Marx***, P. 233.

(3) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 78.

ثانيًا: بنية الأيديولوجيا: خصائصها ووظيفتها.

(أ) البنية الاستغلالية للأيديولوجيا.

إذا كانت الأيديولوجيا تطبيقًا لرؤى شمولية حول الإنسان، والمجتمع، والعالم، فإن موضوعاتَها تُجسِّد الافتقار الذي لدى "الآخرين" في النظام الرمزي. ولهذا يذهب جيجيك إلى أن كل الأيديولوجيات تحوي موضوعات «سامية» (Sublime) أو ذات منزلة رفيعة؛ بمعنى أنه لا يمكن ملامستها أو الوقوف عليها بشكل نهائي، وكلما حاولنا الاقتراب منها، تفقد طابعها السّامي، وتصير موضوعات عادية[١].

على هذا النحو فإن الأهداف التي تصبو الأيديولوجيات إلى تحقيقها ترتبط بهذه الموضوعات السامية؛ مثل: "**الأمة**" **في الأيديولوجيات القومية**، "الله" **في الأنظمة الثيوقراطية** ، "**السيد**" **في الأنظمة الملكية**، "**المصلحة الوطنية**" **في الأنظمة الاستبدادية**، "**العدالة**" **في الأنظمة الاشتراكية**، "**الحرية**" **في الأنظمة الديمقراطية الليبرالية**، "**الحزب**" **في ظل الستالينية**، "**الشعب**" **في حكومة الصين اليوم، وما إلى ذلك.**

لكن من داخل هذه الموضوعات فقط– وليس من خارجها– تتخفّى البنية الاستغلالية للأيديولوجيا. فالقيم التي تستند إليها الليبرالية؛ مثل: الحرية، والمساواة، والعدل، ورغم أنها قيم كلية، إلا أن مضمونها يَصُبّ في مصلحة الطبقة البرجوازية وحدها؛ الأمر الذي يجعلها في الواقع العملي تُقيِّد من نطاق هذه القيم فتَقصُرها على الطبقات الغنية وحدها وتَحجُبها عن الطبقات الأخرى. وفي هذا المعني يشير جيجيك إلى أن «**جوهر تحليل ماركس للأيديولوجيا يتمثل في أن المصفوفة الليبرالية التي تتألف من الحرية والمساواة ليست مجرّد "قناع" يُخفي الاستغلال فقط، بل تُمثِّل الشكل ذاته الذي يُمارَس فيه الاستغلال والسيطرة**»[٢].

من هنا ليس من الصحيح– وفقًا لما يراه جيجيك– الكشف عن البنية الاستغلالية للأيديولوجيا من داخل أهدافها، بل يجب أن نُركّز على التعمق في جوهر الموضوع الذي تقوم عليه. فالنازية– على سبيل المثال– كانت تستهدف تحقيق العدل الاجتماعي، وتنبذ الاستغلال، كما تفعل كل الحركات الاشتراكية. أما بنيتها الاستغلالية فتكمن وراء موضوعها؛ في الفجوة التي تخلقها بين الطبقات الاجتماعية، وإن هذه الفجوة هي المقوم الأساسي لها. ولهذا فإن الأيديولوجيا ذات بنية سطحية، وتشتغل على إخفاء هذه البنية "غير المتوازنة"، و"غير الظاهرة"[٣].

(**1**) Žižek: ***The Sublime Object of Ideology***, P. 192.

(**2**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 125.

(**3**) Žižek, Slavoj: ***The Plague of Fantasies***, London & New York: Verso, 1997, P. 106.

إن الفجوة بين المجموعات والطبقات الاجتماعية هي المقوم الأساسي الذي تعمل الأيديولوجيا من خلالها، وهي التي تكشف عن بنيتها السلطوية في الوقت نفسه. وهذا يعني أنه على المستوى الأوليِّ، تستغل الأيديولوجيا الحد الأدنى للتعايش بين المجموعات والطبقات المختلفة[١]. ومن هنا فإن تفسير الأيديولوجيا على النحو الصحيح، لإدراك معانيها الخفية، يستلزم منا الوقوف على المنطق العام الذي يُسيِّرها من جانب، بالإضافة إلى الأهداف الحقيقية التي ترمي إليها من جانب آخر.

وبتأثير من جاك لاكان، يُميِّز جيجيك بين «**الواقع**» "Reality"، و«**الواقعي**» "Real". يشير المفهوم الأول إلى حيز العلاقات بين أناس فعليين منخرطين في العمليات الاجتماعية العادلة. أما الأيديولوجيا فإنها تشتغل على المفهوم الثاني، وهو يشير إلى البنية المُشَوَّهة، والمتصلبة لرأس المال الذي يُحدِّد ما يجري في الواقع الاجتماعي[٢]. ويتشكَّل "الواقعي" في كل الأحيان داخل قالب أيديولوجي معيّن، ويعمل "التخييل" على نجاح البنية الأساسية للأيديولوجيا التي تستهدف جعل "الواقع" متناغمًا ومتماسكًا. ومن هنا لا يُمثِّل "الواقعي" شيئًا حقيقيًا، وإنما يعمل على الحفاظ على الفجوة التي تفصل الشيء عن جوهره الحقيقي. ولذلك يمكن اعتباره مجرّد نواة خاوية غير قابلة للتحقق[٣].

وفي هذا الإطار، يُميِّز جيجيك بين صورتين للأيديولوجيا: «**الأيديولوجيا المشكَّلة**» "Constituted Ideology"، وهي لا تتعدى مجرّد التلاعب والانحرافات المادية على مستوى المحتوى، و«**الأيديولوجيا التأسيسية**» "Constitutive Ideology"، وتتمثل في القالب الذي يقع داخله المحتوى الأيديولوجي. ولهذا فإن الأولى تقتصر على مجرّد الفساد المادي، أما الثانية فتنصبّ على التشوهات الكامنة في أصول الأيديولوجيا ذاتها، كما أن هذا المجال الأساسي في الأيديولوجيا التأسيسية يفترض وقوفها في الجانب المقابل للأيديولوجيا؛ أعني "اللاأيديولوجيا" Non-ideology[٤].

---

(1) Ibid, P. 105.

(2) Žižek, Slavoj: ***Violence: Six Sideways Reflections***, New York: Profile Books Ltd, 2008, P. 13.

(3) Žižek, Slavoj: ***For They Know Not What They Do: Enjoyment as a Political Factor***, London & New York: Verso, 1991, xxvii.

(4) Žižek, Slavoj: ***Living in the End Times***, London & New York: Verso, 2010, PP. 55-56.

وتمثل "اللاأيديولوجيا" (أو ما يُطلق عليه: "اللحظة اليوتوبية النموذجية الماثلة حتى في أكثر الأنظمة وحشية) أمرًا لا غنى عنه في أي أيديولوجيا. وبعبارة أخرى، **ليست الأيديولوجيا سوى شكل التمثُّل، أو التشويه غير الموضوعي، والإزاحة للأيديولوجيا**. فقد تأسست النازية على فكرة الطموح اليوتوبي لحياة اجتماعية أصيلة، كما تأسست على فكرة الرفض التام للاعقلانية الناجمة عن الاستغلال الرأسمالي. ومن هنا فإنه من الخطأ من الناحيتين النظرية والسياسية محاكمة هذا الطموح بوصفه «تخييلًا شموليًا» "Totalitarian Fantasy"؛ أيّ إنه من الخطأ البحث فيه عن "جذور" فاشية– وهو الخطأ السائد الذي وقعت فيه المذاهب الليبرالية الفردية[١].

وإذا كانت كل الأيديولوجيات تزعم أنها ذات أساس أخلاقي، وتستهدف تدعيم القيم الإنسانية، فإنها لا تنظر إلى نفسها على أنها "أيديولوجيا"، وعلى حدّ تعبير جيجيك: «تقوم الأيديولوجيا دائمًا على أساس من المرجعية الذاتية أو المكتفية بنفسها؛ أيّ إنها دائمًا ما تُميِّز نفسها– بطريقة ما– إنها ليست مثل الأيديولوجيات الأخرى (المرفوضة) و(المستنكرة)»[٢]. ويتكشّف هذا الطابع اللاأيديولوجي المزعوم عند التّمعُّن– على سبيل المثال– في تدخلات «حلف الناتو» في بلدان مثل كوسوفو، أو حتى رواندا، وغيرها من البلدان الأخرى، حيث نجدها أساسًا قائمة على أجندات أيديولوجية سياسية، على عكس ما تزعمه من أنها تفتقر إلى هذه الأجندات، ولا تشن الحرب إلا تحت راية "الإنسانية"[٣].

نستنتج من هذا أن نجاح الأيديولوجيا لا يعتمد على أهمية أهدافها، وإنما على قدرتها على استغلال موضوعاتها لتحقيق أهداف محددة سلفًا، ويوضح «**ماثيو شارب**» (Matthew Sharpe) أن الموضوعات التي تتضمَّنها الأيديولوجيات، وتتجلَّى للأفراد من خلالها، تحوي مظهرًا رفيعًا أو ساميًا، ومن ثَمّ فإنها مُلزِمة سياسيًا عندما ينظرون إليها من داخل الإطار أو الرؤية التي تقدّسها الأيديولوجيا؛ الأمر الذي من شأنه أن يجعلها تُخفي مظهرًا من الرغبة السياسية الفعّالة والجامحة في إخضاعهم[٤].

---

(1) Žižek, Slavoj: ***The Ticklish Subject: The Absent Centre of Political Ontology***, New York: Verso, 1999, P. 185.

(2) Žižek, Slavoj: ***The Universal Exception: Selected Writings***, edited by: Rex Butler and Scott Stephens, London & New York: Continuum, 2006, P. 162.

(3) Ibid, PP. 219-220.

(4) Sharpe, Matthew: "***Slavoj Žižek (1949-...?)***", in: Simons, Jon (ed.), *Contemporary Critical Theorists: From Agamben to Žižek*, Edinburgh: Edinburgh Univ. Press, 2010, P. 254.

كذلك يتناول «توني مايرز» (Tony Myers) بنية الأيديولوجيا عند جيجيك فيوضح أنها تتجسّد على ثلاثة مستويات أساسية، وهي على النحو الآتي:

- الأول: "**المذهب**" Doctrine، أو التعاليم الفكرية.
- الثاني: "**الاعتقاد**" Belief، أو الممارسة العَقَدية.
- الثالث: "**الطقوس**" Rituals، أو الفعل المتجسد في الواقع.

تتجسد الأيديولوجيا على مستوى "المذهب" من خلال الرؤى والأفكار السياسية والاقتصادية. وعلى سبيل المثال، فإن الديمقراطية تطورت عن طريق أفكار "جون لوك" (١٦٣٢-١٧٠٤) وتنظيراته لليبرالية في المجال السياسي. أما على مستوى "الاعتقاد" فإن الأيديولوجيا تعمل من خلال شبكة المظاهر المادية، وعن طريق أجهزة الدولة ومؤسساتها. وهنا نجد الليبرالية تتجسَّد في الصحافة المستقلة، والانتخابات، والسياسة الحزبية، وما إلى ذلك. وأخيرًا فعلى مستوى "الطقوس" تشتغل الليبرالية على طريقة إدراك الأفراد للواقع، وتتحقق في ممارساتهم المادية. وفي هذه الحالة، نجد الأفراد ينظرون إلى أنفسهم بطريقة تلقائية كأفراد أحرار[١].

وإذا كانت الأيديولوجيا تعمل أساسًا على تشويه الطريقة التي ينظر الأفراد من خلالها إلى واقعهم، ويسلكون بِناءً عليها، فإن التساؤل الذي يطرح نفسه: **ما الخصائص التي تُميِّز الأيديولوجيا؟**

(ب) خصائص الأيديولوجيا:

تتميَّز الأيديولوجيا بعدد من السمات والخصائص التي يمكن يقف على رأسها: "**الإخضاع**"، و"**الضغط المستمر**"، و"**القدرة على الانتشار**". وفيما يأتي تفصيلٌ مختصرٌ لهذه الخصائص الثلاث:

(١) الإخضاع والتعمية:

يُعَدُّ "الإخضاع" Subjugation سمة أساسية للأيديولوجيا. وفي تحليله للطريقة التي تجعل من السيطرة على الأفراد مكونًا ضروريًا لأي أيديولوجية، يذهب جيجيك إلى أن الأيديولوجيا ذات طابع كلي، وتشتمل على محتويين: محتوى شعبي "أصيل"، بالإضافة إلى محتوى آخر "مُشَوَّه" نتيجة لعلاقات الهيمنة السائدة. على سبيل المثال، فمما لا شك فيه أن

---

(1) Myers, Tony: ***Slavoj Žižek***, London: Routledge, 2003, P. 71.

الفاشية الإيطالية كانت تعمل من خلال "التلاعب" بالرغبات والطموحات الشعبية من أجل بناء مجتمع متماسك، ولكنها من ناحية أخرى كانت "تُشوِّه" التعبير عن هذه الرغبات والطموحات من أجل إضفاء المشروعية على استمرار علاقات الهيمنة والاستغلال. ومع هذا، ولكي تنجح في تشويه هذه الرغبات والطموحات الشعبية الأصيلة، كان عليها أولًا أن تحتوي هذه الرغبات والطموحات في منظومتها الأساسية(١).

من هنا فإن الإخضاع ليس نتاجًا لمحتوى معين يُشكله النسيج الزائف للأيديولوجيا، بل هو يُمثِّل الصورة ذاتها للطبيعة الكلية للأيديولوجيا والتي تتغذى على الصراع بين محتويين محددين على الأقل: المحتوى "الشعبي" الذي يُعبِّر عن الرغبات والطموحات المكبوتة للأغلبية المقهورة، والمحتوى الخاص الذي يُعبِّر عن مصالح القوى المهيمنة(٢).

وإذا نظرنا إلى وظيفة الإخضاع، سنجده يستهدف السيطرة على طريقة إدراك الأفراد للواقع، ومن ثَمَّ فإن الأيديولوجيا تعمل في إطار من الشعار المحافظ الذي مفاده: «**لا تفكر، امتثل فقط!**»، أو حتى «**فكِّر بحرية، لكن امتثل في النهاية!**»(٣). لكن ليس معنى هذا أنها تشتغل بطريقة لاعقلانية في فرض قواعدها، وعلى حدّ تعبير جيجيك: «**لا تقوم الأيديولوجيا على نوع من الطاعة غير الرشيدة (Irrational Obedience)، وإنما تنزع إلى نوع من "العقلنة" لمجموعة من العوامل التي تُخفي حقيقة الواقع**»(٤).

ويُطبِّق جيجيك هذه الخاصية للأيديولوجيا على الرأسمالية، ويذهب إلى أن الدوران الذاتي لرأس المال في عصرنا الراهن يظل أكثر من أي وقت مضى الدافع النهائي لحياتنا؛ نظرًا لقدرته الهائلة على السيطرة على نشاطنا وسلوكنا، والتعمية عن أكثر المخاطر التي نواجهها. إنها تعمية ذاتية "لاعقلانية" ترتبط ارتباطًا وثيقًا "بلاعقلانية" الطبقات الدنيا التي تصوت ضد مصالحها الخاصة- رغم علمها بذلك- وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على السلطة المادية للأيديولوجيا. فالأيديولوجيا مثل الحب؛ ذات طبيعة عمياء(٥).

وفي الحقيقة لقد أصبحت الأيديولوجيا أكثر تغلغلًا؛ وذلك راجع أساسًا إلى تطور التكنولوجيا في العالم المعاصر، والهيمنة المتزايدة للسوق الحر والشركات غير الممولة من

(**1**) Žižek: ***The Universal Exception***, P. 152.

(**2**) Žižek: ***The Ticklish Subject***, PP. 184-185.

(**3**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 17; Žižek: ***Violence***, P. 143.

(**4**) Žižek: ***The Plague of Fantasies***, P. 100.

(**5**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 37.

جانب الدولة، وهو ما يشير إليه جيجيك بقوله: «نظرًا للتطور الهائل في التقنية، فإن الدولة ليست وحدها القادرة على التحكم في الأفراد، وإنما هناك أيضًا الشركات والمؤسّسات الكبرى التي أضحت قوة مهيمنة وقادرة على اختراق حياتهم، والتحكم في طريقة إدراكهم للواقع إلى حد لم نسمع به من قبل»[١].

تظهر سمة الإخضاع في المجتمعات الرأسمالية ذات الطابع المركزي والتنظيم الذاتي والمشاركة متعددة الأطراف، والتي لا تعبأ بقضية العدالة الاجتماعية؛ حيث تتزايد سيطرة الشركات لدرجة تفوق سيطرة بعض الحكومات على شعوبها. ومن ناحية أخرى، فقد ازدادت هيمنة الأيديولوجيا وأصبحت أكثر تعقيدًا، خاصة مع تقدم التقنية الحديثة والتكنولوجيا الرقمية التي انعكست بشكل أو بآخر على شتى مناحي الحياة الإنسانية. ويكشف جيجيك في هذا الصدد عن أن الليبرالية تستفيد دائمًا من الثورة التكنولوجية التي أصبحت مهيمنة في التأثير في طريقة إدراك الأفراد لواقعهم وتوجيه سلوكهم[٢].

من هنا تُعَدُّ تكنولوجيا الاتصال إحدى أقوى أدوات الأيديولوجيا في عصرنا، ولهذا نجد الرقابة عليها من أهم الآليات التي تُمكِّنها من سرعة انتشارها وتحقيق أهدافها، بحيث تستطيع من خلالها وضع الأفراد في "قالب" محدد يدور في فلكه تفكيرُهم وسلوكُهم. وفي هذا الإطار يشيد جيجيك بتحليلات «**جيل دولوز**» (Gilles Deleuze) (١٩٥-١٩٩٥) لرأسمالية عصر ما بعد الحداثة، وخاصة قدرتها على العمل بصيغ متعددة الأشكال والرموز، ويَعُدّه المُنظِّر الأبرز لما يسميه "بالرأسمالية الرقمية"[٣].

من ناحية أخرى، يكشف جيجيك عن الاستغلال الأيديولوجي لسينما هوليوود في الترويج للرأسمالية، وإخضاع نمط حياة الأفراد في العالم للطريقة الأمريكية، بحيث تصبح "الحياة الاجتماعية" ذاتها كمسرح يتم من خلاله تقديم مجموعة من التخييلات، ويصبح الناس في نهاية المطاف أدوات يؤدون أدوارًا مثلما يؤدي ممثلو المسرح[٤].

(**1**) Ibid, P. 32.

(**2**) Žižek, Slavoj, and Daly, Glyn: ***Conversations with Žižek***, London: Polity Press, 2004, P. 95.

(**3**) Žižek, Slavoj: ***Organs without Bodies: Deleuze and Consequences***, New York: Routledge, 2004, xii.

(**4**) Žižek: ***The Universal Exception***, P. 271; Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 14.

يقول جيجيك موضحًا الدور المستتر الذي تضطلع به سينما هوليوود في إضفاء المشروعية على الرأسمالية:

«ما يجذب الملايين من شعوب العالم الثالث إلى أمريكا، حتى أولئك الذين تتعارض أيديولوجيتهم "الرسمية" مع كل ما تقوم عليه الرأسمالية الأمريكية، ليس فقط الطموح للوصول إلى مستوى الثروة المادية الذي وصلت إليه، ولكن أيضًا الشغف "بالحلم الأمريكي"، وفرصة المشاركة في تحقيقه. ومن هذه النقطة، تُمثِّل هوليوود– حرفيًا– "مصنع الأحلام"؛ حيث إن وظيفتها هي نسج خيوط الأيديولوجيا الليبرالية، وتقديم صورة مُتناسِقة من معطياتها للأفراد لكي يظلوا واقعين تحت تأثير أحلامها وتخييلاتها الخاصة»[١].

كذلك يكشف جيجيك عن دور هوليوود قبل وقوع أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في تخيل هذه الكارثة، حيث يذهب إلى أن سينما هوليوود مارست– ولا تزال– دورًا أيديولوجيًا مُنظمًا على مدى عقود طويلة، وكانت منتجاتها أيديولوجية في الأساس، وعلى حدّ قوله: «تُعَدُّ هوليوود المركز العصبي للأيديولوجيا الأمريكية التي لا تزال تمارس سطوتها في جميع أنحاء العالم»[٢].

يوضح جيجيك أن سيناريو الهجمات نفسه كان قد تم إعداده بالفعل في صورة تخييل أيديولوجي، والدليل على هذا أن وسائل الإعلام الأمريكية– قبل وقوع الهجمات– كانت دائمة الحديث عن التهديد الإرهابي المحتمل، بل إن هذا التهديد تم استثماره على نحو غاية في الإثارة، كما نجد في فيلم «الهروب من نيويورك» (١٩٨١)، وفيلم الخيال العلمي «يوم الاستقلال» (١٩٩٦)؛ من أجل توصيل رسالة إلى العالم مفاداها أن المجتمع الأمريكي يعيش بعيدًا عن كوارث الآخرين، وأن هذه الكوارث ما هي إلا تَمثُّل شبحي لا علاقة للأمريكيين به، وإنما يظهر على شاشة التلفزيون ويحدث للآخرين فقط. وفي هذا يكمن الأساس المنطقي لربط الهجمات في كثير من الأحيان بأفلام الكوارث التي أنتجتها هوليوود؛ أي إن ما حدث في ١١ سبتمبر هو أن هذا التخييل الأيديولوجي أو التّمثُّل التوهمي على الشاشة قد نزل إلى الواقع الأمريكي، وكانت تلك هي المفاجأة الكبرى[٣].

---

(1) Žižek, Slavoj: "***Afterword: Lenin's Choice***", in: idem (ed.), *Vladimir Lenin, Revolution at the Gates: A Selection of Writings from February to October 1917*, London & New York: Verso, 2002, P. 240.

(2) Loc. Cit.

(3) Žižek: ***The Universal Exception***, P. 272; Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, PP. 15–16.

كذلك ينتقد جيجيك الطريقة التي تعاملت بها أمريكا مع الهجمات، فبدلًا من أن تُعيد النظر في سياستها التي قامت على أساس اختراع الأعداء الذين جاءوا إليها أخيرًا في عقر دارها، عَدَّت نفسها الحامي الوحيد لحقوق الإنسان، وأعطت لنفسها دورًا استثنائيًا بوصفها رجل الشرطة العالمي الذي يسعى لاحتواء كل تهديد للسلام والحرية؛ الأمر الذي قادها إلى الإفراط في استخدام القوة القمعية ضد العراق وأفغانستان وغيرها من دول الشرق الأوسط وأفريقيا وجنوب آسيا، برغم أن الواقع السياسي الأمريكي نفسه هو الذي تسبَّب في وقوع هذه الهجمات(١).

وإذا كانت الهيمنة الأيديولوجية قد دفعت بأمريكا إلى غزو البلدان تحت مظلة حماية نفسها وحماية الشعوب الأخرى من خطر الإرهاب، فإن جيجيك في المقابل يذهب إلى أن الإمبريالية الأمريكية بحاجة دائمًا إلى حالة (حرب دائمة)؛ لأنها تعمل في الأساس من منطلقات أيديولوجية وعسكرية، وليست اقتصادية خالصة. ومن خلال الفكرة المزعومة: «الحرب على الإرهاب»، تُقدِّم أمريكا نفسها على أنها الحامي العالمي لجميع الدول(٢).

نستنتج من هذا أن السينما تُعَدُّ من بين أكثر الفنون قابلية لتحريف طريقة إدراك الأفراد؛ لأنها تُملي عليهم قراءة محددة للواقع. وإذا كان الفن– بصفة عامة– ليس انعكاسًا مباشرًا للواقع أو تمثُّلًا فَظًّا له، وإنما هو في الأساس صياغة الواقع فنيًا في قالب فلسفي، فإن السينما من بين أكثر الأدوات تأثيرًا في الإخضاع الاجتماعي؛ حيث إنها وإنْ كانت تلتزم بنقل الواقع، فإنها تقوم بإعادة إنتاجه وصياغته في قالب أيديولوجي محدد يستهدف تعزيز رؤى ومواقف بعينها.

وفي الحقيقة إن العلاقة بين **الفن والأيديولوجيا**، أو أثر الأيديولوجيا في الأعمال الفنية، تُمثِّل إحدى أكثر المسائل الشائكة، خاصة مع تطور تكنولوجيا الاتصال. كما أنه لا يوجد اتفاق حول ما إذا كانت هذه العلاقة جدلية، أم تحريفية؟ إذ لا يمكن تجاهل التوجهات السياسية والأيديولوجية عند انبثاق الأعمال الفنية والأدبية الأخرى، ويزيد من صعوبة هذه العلاقة كون الفن يقوم أساسًا على عنصر التخيُّل، الأمر الذي يجعل هناك مساحة لأن تستغل السلطة الحاكمة هذا التخيُّل، وتوظفه في نسج التخييلات التي تستهدف التحكم في سلوك الأفراد، وضبط طريقة إدراكهم للواقع في ضوء قالبها الخاص.

---

(1) Žižek: ***The Universal Exception***, P. P. 303, 317; Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 49.

(2) Žižek, Slavoj: ***The Year of Dreaming Dangerously***, London & New York: Verso, 2012, P. 18.

ويعود جيجيك إلى التخييل الأيديولوجي، حيث يذهب إلى أن مفعوله يظل مستمرًا حتى بعد وقوع الكارثة، ويضرب مثالًا على ذلك بالرباط الوثيق الذي جمع بين سينما هوليوود وبين فكرة «الحرب على الإرهاب»؛ حيث قام البنتاجون في بداية أكتوبر ٢٠٠١- أي فور وقوع الهجمات- بتشكيل مجموعة تضم كُتّاب السيناريوهات والمخرجين السينمائيين، والمتخصصين في أفلام الكوارث، بهدف تخيُّل السيناريوهات المحتملة للهجمات الإرهابية وكيفية مواجهتها. وبالفعل نجح هذا التفاعل بين هوليوود والجهاز الأيديولوجي للدولة: ففي بداية نوفمبر ٢٠٠١، عُقدت اجتماعات بين مستشاري البيت الأبيض وكبار المديرين التنفيذيين في سينما هوليوود بهدف تنسيق الجهود الحربية وإيجاد الآلية المناسبة التي يمكن لهوليوود من خلالها أن تساعد في الحرب ضد الإرهاب عن طريق توصيل الرسالة الأيديولوجية ليس فقط إلى الأمريكيين فقط، ولكن أيضًا إلى جمهور هوليوود في جميع أنحاء العالم[١].

إن هذا هو ما دفع جيجيك إلى التأكيد على أن سينما هوليوود تشتغل بدور "**جهاز الدولة الأيديولوجي**"، مستعيرًا هذا المفهوم من ألتوسير[٢]، ومُضيفًا إلى ذلك: «إن التلاعب الأيديولوجي الذي تضطلع به هوليوود يُعمينا عن رؤية الواقع من خلال وحدة عقدية تجمع بين شبكة معقّدة من الوسائط البنائية التي تعمل على توليد نوع من المتعة الزائفة»[٣].

وفي الواقع إن تأكيد جيجيك على خاصية الإخضاع في الأيديولوجيا يجعله يلتقي مع «جرامشي» الذي أوضح أن الأيديولوجيا ترتكز على بنى الهيمنة والإكراه، وتشتغل من خلال الأنماط القانونية والسياسية والجمالية السائدة، ولهذا تستخدم الطبقة الحاكمة كل المؤسّسات الاجتماعية كأدوات للهيمنة الأيديولوجية، وإضفاء المشروعية على الاستغلال والقمع الذي تمارسه على الطبقات الأخرى. وهو الأمر الذي يجعل من هذه الطبقات أكثر خضوعًا وتبعية للطبقة المسيطرة اقتصاديًّا[٤].

كذلك فإن تحليلات جيجيك للتوظيف الأيديولوجي للسينما وتأكيده على أنها تُعَدُّ من الأدوات الأكثر تأثيرًا التي يتم من خلالها نقل وتمرير الرسالة الأيديولوجية، يلتقي فيها مع ما

---

(1) Žižek: ***Living in the End Times***, P. 227.

(2) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 16.

(3) Žižek: ***Living in the End Times***, P. 227.

(4) Schwarzmantel, John: ***Ideology and Politics***, London: SAGE Publications Ltd, 2008, P. P. 11, 27.

ذهب إليه «**جان بودريار**» (Jean Baudrillard) (١٩٢٩-٢٠٠٧) من أن السينما في عالمنا الراهن تُمثِّل (دالًّا) لا لمدلول حقيقي بل لدال آخر. فهي تجسيد للسيناريو الذي يُعَدُّ بدوره تجسيدًا لرواية معينة. وليست الرواية هي الأخرى المدلول الحقيقي الأخير، بل هي بالأحرى (دالّ) لخبرات وتجارب عامة(١).

نستنتج من هذا أن من أهم سمات الأيديولوجيا الإخضاع والتعمية الذاتية، ويؤكد «**آدم كوتسكو**» (Adam Kotsko) أن الأيديولوجيا يستتبِعها الإخضاع الذي ينتج عنه انفصال الفرد عن المجتمع، وهو ما يؤدي إلى خلق اضطرابات في الهوية، ويظل هذا الأمر قائمًا إلى حين تتهيأ الفرصة لحراك اجتماعي قوي قد يُفضي إلى الثورة. ويتعرَّض «كوتسكو» لتصور الأيديولوجيا عند جيجيك بالمعني سالف الذكر متسائلًا: "إذا كان الناس يعرفون أن النظام الذي يعيشون فيه يقوم على الغش والأكاذيب، فلماذا يسايرونه إذن؟" ويجيب عن ذلك بأن "الأيديولوجيا الليبرالية المهيمنة تروج لفكرة أنه إذا كان الفرد لا يرضى عن النظام، فإن المجتمع ككل يدعم النظام القائم، ويجب احترام رأي الأغلبية؛ الأمر الذي يجعل الفرد أسيرًا لقبضة المجتمع"(٢).

ويوضح «**جون شوارزمانتل**» (John Schwarzmantel) هذه الخاصية للأيديولوجيا بالنظر إلى الأيديولوجيا بوصفها بنى متكاملة الجوانب حول طبيعة "السياسي"، والمجتمع الخيِّر؛ الأمر الذي يجعلها تُقدِّم- على الأقل في شكلها الخالص- مجموعة واسعة وشاملة من الرؤى الفكرية التي تغطي الجوانب المهمة لكيفية تنظيم المجتمع، والإجابة عن تساؤلات من قبيل الدور الذي تضطلع به الدولة، وأشكال التمييز المقبولة وغير المقبولة، والصورة المثالية التي ينبغي أن تظهر عليها الدولة والمجتمع(٣).

من هنا فإن نقد جيجيك لليبرالية يستهدف تعرية التبعية والخضوع، وكيف أن قيم الحرية والمساواة والعدالة في منظومتها مجرّد شعارات تُخفي وراءها تخييلات سياسية واجتماعية واقتصادية(٤). ويتعرَّض «**بول تايلور**» (Paul Taylor) للتوظيف الأيديولوجي للتقنية، موضحًا أن الأفراد في العالم المعاصر محاطون بهالة من الصور الخادعة دون

---

(١) منصور، د/ أشرف: «**الأيديولوجيا في عصر تكنولوجيا الاتصال**»، ص. ٢٠٨.

(2) Kotsko, Adam: ***Žižek and Theology***, P. 28.

(3) Schwarzmantel, John: ***Ideology and Politics***, P. 25.

(4) Sharpe, Matthew & Boucher, Geoff: ***Žižek and Politics: A Critical Introduction***, Edinburgh: Edinburgh Univ. Press, 2010, P. 63.

حضور وجودي حقيقي، وهذه الصور لها أهمية وفعاليَّة كبيرة؛ حيث تجعل الأفراد خاضعين ومنغمسين في مجموعة من التخييلات التي يجدون أنفسهم مجبرين على العيش داخلها[١].

(٢) "الضغط" المستمر:

تعني هذه السمة أن الأيديولوجيا وسيلة لدفع الأفراد نحو ممارسة ما يتفق مع منظومتها، رغم ما قد يوجد من بدائل أخرى متاحة أمامهم. وهنا يتصرَّفون كما لو أنهم مجبرون على فعل هذا الشيء دون غيره، رغم ما يزعمونه من حرية.

إن هذه الخاصية هي ما يسميه جيجيك الضغط المستمر، وهذا الطابع القسري للأيديولوجيا مثل كل الإكراهات الأخرى التي تظهر عند قيامنا بفعل معين ليس لنا عليه أي تأثير حقيقي. ولهذا يشير جيجيك إلى أن الضغط "لفعل شيء ما" يُجبرنا في بعض الأحيان على القيام بأفعال لا لشيء سوى تجنب الحديث عنها أو التفكير فيها؛ كأن تصرف الحكومة- على سبيل المثال- مبالغ طائلة في علاج تداعيات مشكلة ما بدلًا من الوقوف على أسبابها الحقيقية، أو التفكير في كيفية مواجهتها[٢].

وفي الحقيقة إن سمة الضغط راجعة أساسًا إلى التأثير السحري للأيديولوجيا. ومعنى هذا أن الأيديولوجيا أداة لانحراف طريقة التفكير والإدراك، ويتم هذا عن طريق ما يسميه جيجيك «**التكرار القهري**» 'Compulsion to Repeat' الذي يُمثِّل مجموعة من المظاهر المتشابهة التي تُشكل الواقع، والتي تَدفع الأفراد إلى التمسك بها وتكرارها في كل مرة بدافع من الإلحاح رغم ما تنطوي عليها من أضرار جسيمة. وهو الأمر الذي من شأنه أن يجعلهم يلهثون دائمًا وراء "الواقعي" لما له من تأثير كبير يفوق أي تأثير آخر، ويتم ذلك عن طريق الاستعانة بالمؤثرات الرقمية الخاصة؛ مثل "التلفاز"، وكذلك من خلال تقديم العديد من المواد الاستهلاكية والإباحية، وصولًا إلى زخم أفلام القتل والرعب[٣].

من هذا المنطلق تستهدف الأيديولوجيا تحقيق ما يُسمّيه جيجيك "**الشغف بالواقعي**" "**Passion for the Real**"؛ والذي يُحدِّده بوصفه السمة المركزية للقرن العشرين، خلافًا للمشروعات والمُثل العليا اليوتوبية والعلمية التي سادت في القرن التاسع عشر. وتستهدف

---

(1) Taylor, Paul A.: ***Žižek and the Media***, Cambridge: Polity Press, 2010, P.81.

(2) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 11.

(3) Žižek: ***The Universal Exception***, P. 269.

الأيديولوجيا من خلال هذه السمة تقديم الشيء نفسه لتحقيق النظام الجديد المأمول[١]. وهذا يعني أن "**الشغف بالواقعي**" و"**الشغف بالمشابهة**" "**Passion for the Semblance**" وجهان لظاهرة واحدة[٢].

وفي هذا الإطار يشير جيجيك إلى أن **أسباب النصب والاحتيال من جانب بعض المستثمرين والرأسماليين لا تكمن في فسادهم أو طمَعهم، بل تكمن بالأحرى في منظومة العلاقات الرأسمالية؛ أي في الضغط المستمر الذي يُولِّده النظام الرأسمالي، والذي يعمل كمحرك ذاتي رغبةً في المشاركة في العملية التنافسية، وتوسيع دائرة المضاربات والتداول.** ومن هنا فإن الدافع إلى الاستمرار في التنافس- حتى ولو بطرق غير مشروعة- هو دافع متأصل في طبيعة العملية الرأسمالية، وهي عملية ليس لها بداية وليس لها نهاية. وهذا الأمر نابع من الفرضية التي تقوم عليها الرأسمالية والمتمثلة في أن بنيتها الفعلية ومحركاتها الذاتية تطمس الحدود بين الاستثمار "المشروع" والمضاربات "الطائشة"؛ لأن الاستثمار في جوهره رِهان غَيْر مَضْمونٍ ومحفوف بالمخاطر؛ لأنه يعتمد على القدرة التنافسية اللامحدودة[٣].

على صعيد آخر فإن الضغط الذي تُحدثه الأيديولوجيا من شأنه أن يُحول الإنسان إلى كائن لا يدرك طبيعة الشيء الذي يرغب فيه، وإنما يتم فرض أحد الخيارات عليه، وكما يشير جيجيك فإن «**الضغط المتواصل للأيديولوجيا لا يقتصر على الجهل بموضوع الاختيار، ولكن- وعلى نحو أكثر عمقًا- على الاستحالة الذاتية للإجابة عن سؤال الرغبة. وهنا يكون الشيء المفقود أساسًا هو الذات أو الشخص نفسه، ونكون بإزاء تحوُّل الإنسان من كونه "فاعلًا" إلى كونه "مفعولًا به"، وهذا يعني أن مسألة الرغبة (ما أريده أنا كفاعل) ليست أساسية عند الاختيار، وإنما يطغي عليها رغبات الآخرين (ما الذي يريده الآخرون مني؟ وما الأشياء التي يريدون مني أن أفعلها؟)**»[٤].

من هذا المنطلق نجد الأيديولوجيا الليبرالية في نظر جيجيك تُركّز على رغبات الفرد؛ بحيث تجعله في النهاية عبدًا لها، وآلة تُحركه. ولهذا يذهب جيجيك إلى أن الرأسمالية في العالم المعاصر تعمل بطريقة سلطوية لم يعرف لها العالم مثيلًا. إنها تواجه الفرد قائلة له: "**أخبرني من أنت؟ أي نوع من الأشياء هي التي تريد أن تكون مثلها؟ ما الذي يمكن أن**

(**1**) Ibid, P. 267.

(**2**) Žižek: ***The Parallax View***, P. 191.

(**3**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 36.

(**4**) Ibid, PP. 63-64.

يحقق لك إشباعًا لرغباتك؟" ويستنتج من ذلك أن الإلحاح والضغط المستمر للأيديولوجيا هي السمة التي تُجسِّد رأسمالية عصر ما بعد الحداثة فيما يتعلق بنزوعها نحو سياسة (الاعتناء بالذات). ومن ثَمَّ فالأيديولوجيا الليبرالية تقوم مباشرة بتعبئة هذا النقص لدى الأفراد لكي تعزز عن طريقه عملية "إعادة خلق الذات" باستمرار، وهي عملية استهلاكية في المقام الأول[١].

هذا يعني أن الأيديولوجيا الليبرالية تمارس ضغطها من أعلى إلى أسفل، وهو الأمر الذي يَدفعها في نهاية المطاف إلى محاولة إضفاء المشروعية على نظامها الرأسمالي، وبذلك فإنها تظل تمارس قبضتها القوية على الأفراد خاصة عندما يحاولون الانفصال عنها[٢].

(٣) القدرة على الانتشار:

تتَّسم الأيديولوجيا بأنها سريعة الانتشار، ومن أجل أن تعزز من قوة انتشارها، فإنها تنظر إلى الأيديولوجيات الأخرى على أنها زائفة، أما هي فترى في نفسها على أنها تُمثِّل الحقيقة المطلقة للكون، والإنسان، والمجتمع، وعلى حدّ تعبير جيجيك: «ما يجعل الأيديولوجيا فعّالة وصالحة للتطبيق هو ذلك الأساس الذي تقوم عليه والمتمثل في أنها تتجاوز كل العيوب المتأصلة في الأيديولوجيات الأخرى»[٣]. ولهذا **تظهر الأيديولوجيا دائمًا في "صورة غير أيديولوجية" *Non-ideological* Form؛ حيث تظهر وكأنها تُمثِّل جوهر هويتنا البشرية في مواجهة كل المنظومات الأيديولوجية الأخرى**[٤].

يعمل هذا الوجود خارج فضاء "الأيديولوجيا" كمثال يمكن اتباعه، ولهذا فإن الأيديولوجيا تنعكس في ممارسات الأفراد المختلطة بتأثيرات نابعة من تراث عميق من شأنه أن يوجههم من حيث طريقة إدراكهم لواقعهم، والكيفية التي يتعاملون بها مع الثقافات الأخرى[٥]. ويَذكر جيجيك أنه في إحدى الحقب المعاصرة من تاريخ الصّين، قام مجموعة من مُحدِثي النعمة ببناء العديد من القرى النموذجية على غرار المدن الغربية الرأسمالية. وعلى سبيل المثال، هناك بالقرب من العاصمة شانغهاي نسخة "حقيقية" طبق الأصل من بلدة إنجليزية صغيرة، بما في ذلك الشارع الرئيس، والكنيسة الأنجليكانية، ومحلات سينسبري

---

(1) Ibid, PP. 64-65.

(2) Vighi, Fabio & Feldner, Heiko: ***Žižek's Beyond Foucault***, Basingstoke, UK: Palgrave Macmillan, 2007, P. 33.

(3) Žižek: ***The Plague of Fantasies***, P. 28.

(4) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 39.

(5) Žižek: ***The Parallax View***, PP. 25-26.

للتسوق. أما سكان هذه المدينة فإنهم يعيشون في عالم من خيالاتهم الأيديولوجية، حيث لا وجود في الواقع "لطبقة دنيا" تُحيط بهم(١).

يوضح هذا المثال- على ما فيه من دلالة- أن الأيديولوجيا لا تؤثر فقط في المعتقدات الدينية والسياسية المهمة، بل تؤثر كذلك في **توجيه طريقة إدراك الأفراد لجميع الأشياء والأمور الأخرى، حتى التافهة منها- أو التي قد تَبْدو كذلك- كالطريقة التي توجههم في تصميم منازلهم مثلًا. ومن هذا المنظور تكتسب الأيديولوجيا أهمية خاصة بالنسبة لإدراك الأفراد للمعتقدات والثقافات المُحيطة بهم، وكيفية اتخاذ اختياراتهم وممارساتهم على أرض الواقع.**

نستنتج من هذا أن قوة الأيديولوجيا تمتدّ إلى كل مجالات الحياة العامة والخاصة، بداية من مكان العمل وانتهاءً بأحلام اليقظة، ومن المدرسة ودُور العبادة إلى مؤسسات الترفيه. وباختصار، إن قدرتها على الانتشار كبيرة؛ بحيث تخترق كل المؤسّسات الدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والإعلامية. ولهذا يشير جيجيك إلى الأيديولوجيا بأنها تطمس الخط الحاسم للفصل بين ما هو "حقيقي" وما هو "وهمي"؛ الأمر الذي يؤكد أن الأفراد في العالم المعاصر غارقون في بحر الأيديولوجيا(٢).

يمكن تَلَمُّس هذه الخاصية في الرأسمالية التي استطاعت أن تغزو العالم، كما في "مدن الاستمتاع والترفيه" في الصّين اليوم، على طراز بعض المدن الغربية "النموذجية". لقد أصبح الصّينيون يقلدون الغرب الرأسمالي، وإلى الحد الذي أقرّ عنده الشيوعيون الصينيون بعجزهم وبانتصار خصمهم، متسائلين: **ما جدوى السلطة القمعية للشرطة السرية، والمعتقلات، والحرس الأحمر، مقارنة بقوة الرأسمالية الجامحة في اختراق جوهر النسيج الاجتماعي التقليدي؟**(٣).

من هنا فإن الأيديولوجيا تستهدف فرض نفسها من خلال تشويه البدائل الأخرى الممكنة، أو من خلال وضع برنامجها في مقابل وحيد مع نقيضها، ويتم ذلك ليس من خلال الحوار وإتاحة بدائل منفتحة أمام الأفراد، وإنما عن طريق تقديم نفسها بوصفها البديل الوحيد. أما عندما يكون الخيار الآخر قريب المنال، وهو الأمر الذي من شأنه أن يهدد بقاء الأيديولوجيا المهيمنة، فعند هذه اللحظة تنزع السلطة الحاكمة إلى استخدام الأساليب القمعية،

(**1**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, PP. 4–5.

(**2**) Žižek: ***Living in the End Times***, P. 5.

(**3**) Ibid, P. 288.

وهنا يصل التشخيص الأيديولوجي لذروته، وعلى حدّ تعبير جيجيك: «**إن مثل هذه اللحظات من "الاختيار الحقيقي الحر" تَدفع النظام القائم إلى نشر الخوف وإثارة الذعر في قلوب الناس، واستدعاء صور من الفوضى الاجتماعية، والفقر، والعنف، إذا ما قامت الجماهير باتخاذ الخيار الآخر**»[١].

تتَّسم الأيديولوجيا إذن بقدرتها على الانتشار، ولهذا فمن الطبيعي أن تستند إلى الوقائع المنتزعة من سياقها التاريخي والاجتماعي[٢]. ولا شك أن ما يساعدها على التغلغل هو قدرتها اللامحدودة على نشر منظومتها عبر وسائل الإعلام. ويؤكد «**فابيو فيجي**» (Fabio Vighi) على هذه الخاصية، حيث يذهب إلى أن قدرة الأيديولوجيا على التغلغل بين الأفراد، والتي تعمل من خلال وظيفتها التبريرية، تتجسَّد في الأمر القهري المستمر بإغراقهم في نوع من المتع الزائفة، ومن الصعوبة مقاومة هذا النوع من المتع، خاصة وأن الأيديولوجيا تُقدِّم نفسها دائمًا في صورة لاأيديولوجية[٣].

وإذا كانت الأيديولوجيا تتَّسم بهذه الخصائص الثلاث السالفة، فإن التساؤل الذي يطرح نفسه: **ما الوظيفة المحورية التي تشتغل الأيديولوجيا من خلالها على المستويين النظري والعملي؟**

(ج) الوظيفة التبريرية للأيديولوجيا:

إذا نظرنا إلى الوظيفة الأساسية للأيديولوجيا، سنجدها تتمثل في إقرار مشروعية الواقع القائم حتى لو كان مريرًا من ناحية، ومن ناحية أخرى تمريره بوصفه الأفضل من بين جميع العوالم الاجتماعية الممكنة، أو حتى على أنه الأقل سوءًا من أي واقع آخر. وبعبارة أخرى تعمل الأيديولوجيا في كل الأحيان كوسيلة "للتبرير"، حتى لو كان الوضع الناجم عن تطبيقها سيئًا، ولهذا تتضمن الآلية التبريرية لها نوعًا من التسويات الممتزجة بتوقعات يوتوبية تناضل دائمًا لكي تُعطى الأفراد ما يكفي من الأمن والاستقرار الاجتماعي لقبول الفرضيات التي تتبنى عليها[٤].

(**1**) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 14.

(**2**) Seliger, Martin: ***The Marxist Conception of Ideology: A Critical Essay***, Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1977, P. 165.

(**3**) Vighi, Fabio: ***On Žižek's Dialectics: Surplus, Subtraction, Sublimation***, London & New York: Continuum, 2010, P. 15.

(**4**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 26.

من هنا فإن المَهَمّة الأولى للأيديولوجيا تتمثل في تقديم فرضياتها في أفضل صورة ممكنة وكأنها الصيغة النموذجية من بين كل الصيغ الأخرى. ولهذا تعمل الأيديولوجيا في إطار من المَثَل الذي كثيرًا ما نستخدمه في حياتنا اليومية والذي مفاده: «**ليس بالإمكان أبدع مما كان!**». فليس في مقدور أي نموذج آخر تقديم أفضل مما هو قائم! ولهذا يشير جيجيك إلى أنه «نادرًا ما يتم وصف الأيديولوجيا بتعبيرات واضحة، سوى أنه يتم تقديمها للدفاع عن النظام القائم ضد أي نقد له من جانب، وإضفاء المشروعية عليه بوصفه التجسيد الأمثل للطبيعة البشرية من جانب آخر»[١].

كذلك يذهب جيجيك إلى أن وظيفة الأيديولوجيا تتمثل في تقديم أساس راسخ يشمل عناصرها من ناحية، وتقييد هذه العناصر بأدوارها الاجتماعية التي تؤديها من ناحية أخرى[٢]. وهنا نجدها تستهدف تعزيز الوحدة بين الأفراد، وتأمين إقرارهم بمشروعية "الواقع"؛ أي تأمين "**العبودية الطوعية**" "Voluntary Servitude"؛ إذا استعرنا عنوان أطروحة «إيتيان دي لابويتيه» (Étienne de La Boétie)، التي يقول فيها: "**إن تماسّنا السلبي مع السلطة هو الذي يُشكِّلها؛ لأننا لا نُطيع السلطة، أو نخاف منها، لأنها قوية في حد ذاتها، على العكس تَبْدو السلطة قوية لأننا ننظر إليها على هذا النحو، أو نتعامل معها بوصفها كذلك**"[٣].

إن وظيفة الأيديولوجيا ذات طابع اجتماعي في المقام الأول؛ حيث تؤدي مهمة أن يعمل الأفراد لوحدهم بشكل آلي. ولكي تُؤدي الأيديولوجيا وظيفتها على النحو الأكمل، فإن أحكامها يجب أن تكون توصيفات للطريقة التي ينظر الأفراد من خلالها إلى واقعهم. ولهذا يرى جيجيك أن أفضل تعبير عن وظيفة الأيديولوجيا يتمثل في: "إذا لم تستطع تغيير منظومة القواعد الأيديولوجية الصريحة، فيمكنك تغيير المعطيات الأساسية الكامنة في قواعدها وأعرافها البذيئة وأحكامها غير المكتوبة التي تحدد آلية العمل السياسي"[٤].

وإذا كانت الأيديولوجيا تُعَدُّ انعكاسًا حرفيًا للواقع، فإن منظومتها تَدَّعِي الحيادية، وتضع نفسها في تعارض مع الأيديولوجيات الأخرى. وبالتالي هناك ازدواجية منقوشة في

(**1**) Ibid, P. 27.

(**2**) Žižek, Slavoj: ***In Defense of Lost Causes***, London & New York: Verso, 2008, P. 203.

(**3**) Ibid, P. 372; Žižek: ***Living in the End Times***, P. 399.

(**4**) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 32.

مفهوم الأيديولوجيا، وهو ما يتمثل في: (١) "**الأيديولوجيا المجرّدة**" بوصفها تخوفًا ذاتيًا عفويًّا للأفراد من جميع تحيزاتهم. (٢) **المعرفة المحايدة** "**اللاقيمية**" التي يتم تطبيقها على المجتمع لتنميته عن طريق التخطيط المستقبلي[١]. ومن هنا فإن الأيديولوجيا لا تتشكَّل من خلال الفرضيات المجرّدة، بل هي تُجسِّد النسيج الفعلي لواقع الحياة اليومية الذي يجعلها دائمًا "صالحة للعيش"[٢].

ونظرًا لأن الأيديولوجيا في تصور جيجيك تعني أساسًا الطريقة التي يدرك الأفراد من خلالها واقعهم ويتمثّلونه، لذا نجده يَرُدّ الأيديولوجيا إلى أقدم عصور التاريخ المُدَوَّن؛ حيث يذهب إلى أن الكونفوشيوسيين (أتباع كونفوشيوس: حوالي ٥٥١–٤٧٩ ق. م) يُعَدُّوا من أوائل الذين روجوا للكلمة، وذلك عندما مرت الصّين بأزمة "الدويلات المتناحرة" في الفترة ما بين عام ٤٧٥ إلى عام ٢٢١ ق. م، فعندها رأوا أن السبب الأساسي لهذا الاضمحلال يتمثل في عدم تمسك الأمة بالتقاليد الثقافية، وضياع الأخلاقيات والعادات القديمة. وبهذا المعنى لم يكن كونفوشيوس فيلسوفًا بقدر ما كان مُنظِّرًا أيديولوجيًا: فما كان يشغله ليس البحث في الحقائق الميتافيزيقية، وإنما بناء نظام اجتماعي متناغم يمكن للأفراد في ظله أن يعيشوا حياة أخلاقية، في مواجهة التدهور الحضاري للمجتمع الصّيني في ذلك الوقت. ومن هذا المنظور يُعَدُّ أول من حدَّد بوضوح ما نسميه المشهد الأوليّ للأيديولوجيا، والذي يتألف من السلطة القوية للأفكار الموروثة والتقاليد الأساسية النافعة[٣].

من هنا فإن مفهوم الأيديولوجيا سابق على القرن التاسع عشر، حتى وإنْ كانت النظرية نفسها حديثة العهد نسبيًا، وتطوَّرت في ظل ظروف معينة وسياقات محددة (تحديدًا مع ظهور الفلسفة الماركسية). فليست التصورات الأيديولوجية سوى ذلك الأفق الذهني المحدَّد الذي يُدرك الإنسان من خلاله واقعه ويتعامل معه وينخرط فيه.

ولاشك أن نزوع جيجيك إلى الاعتقاد بقدم الأيديولوجيا إنما يتلاقى مع اعتقاد ماركس بأن الأيديولوجيا في جميع صورها لا تملِّك تاريخًا خاصًا، وليس لها أي تطور محدد؛ لأنها تَتبَع البشر الذين يُبدعونها في سياقٍ من إنتاجهم المادي وعلاقاتهم الاجتماعية، أي أنهم هم الذين يحولون فكرهم ومنتجات فكرهم على السواء مع هذا الواقع الخاص بهم. ومن هنا ليس الوعي هو الذي يُحدِّد الوجود، بل العكس، الوجود الواقعي هو الذي يُحدِّد الوعي[٤].

(**1**) Žižek: ***Living in the End Times***, P. 42.

(**2**) Ibid, P. 3.

(**3**) Ibid, P. 11.

(٤) ماركس، وإنجلز: **الأيديولوجيا الألمانية**، ص. ٣١.

كذلك فإن نقطة انطلاق جيجيك بالنسبة لنشأة الأيديولوجيا تتماهي مع نقطة انطلاق ماركس، الذي ذهب إلى أن الفكر انعكاسٌ لما يتصوره البشر أنفسهم عن الواقع الاجتماعي المادي، ومن ثَمَّ فإن نقطة انطلاقنا في دراسة الواقع لا ينبغي أن تتم وفق ما يقوله البشر، أو يتوهمونه ويتصورونه، ولا من تصورات الآخرين وأفكارهم عنه، بل ينبغي أن نبدأ من حياتهم المادية ونشاطهم الواقعي. وبالتالي فإن أي محاولة لفهم تطور الانعكاسات والأصداء الأيديولوجية لهذا التطور الحياتي ينبغي أن تتم انطلاقًا من تطورهم الواقعي أيضًا، مثلما أن الأفكار والتخييلات الأيديولوجية انعكاسات ناتجة بالضرورة عن تطور حياتهم الاجتماعية التي تعتمد على قواعد مادية في الأساس(١).

لكن إذا كان ماركس قد أرجع الأيديولوجيا إلى النشاط المادي وهيكل الإنتاج الاقتصادي ذاته، فإن الأيديولوجيا عند جيجيك ليست مصدرها ماديًا بحتًا. وبالتقابل مع هذه النظرة الماركسية ذات النزعة المادية، أكد جيجيك على ضرورة الكشف عن الأيديولوجيا المختبئة في ميدان التقاليد والمعتقدات والأفكار الموروثة، وذلك عن طريق تعرية قناعات الأفراد الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية التي تمت تعبئتهم فيها من خلال الجهاز الأيديولوجي للدولة. ومن ثَمَّ فإن الأيديولوجيا لا تنفصل عن الواقع بمعناه العام والشامل، بل تمتدّ إلى أصول إدراك الأفراد لهذا الواقع ذاته، وعلى حدّ قوله: «**إن الأيديولوجيا هي أيّ خطاب فكري لا يتجاهل فقط الواقع "الموضوعي" غير المُشَوَّه، بل يتجاهل أيضًا الأصول والعلل الحقيقية لهذا التشويه للواقع ذاته**»(٢).

إن الأيديولوجيا بهذا المعنى تطمس الخط الفاصل بين الأسباب الحقيقية للصراع الاجتماعي والأسباب الوهمية أو المختلقة. ولهذا السبب يذهب جيجيك إلى أن الأيديولوجيا لا ترتبط بشخص معيّن بقدر ما ترتبط ببنية المؤسّسات الاقتصادية والعسكرية القائمة، وإعادة هيكلتها وفق خطة مرسومة ومحددة سلفًا. وبالتالي، فإن اختزال الأيديولوجيا إلى مجرّد التلاعب الخداعي لسياسة فرد بعينه (كالزعيم أو الرئيس)، لا يمكن أن يكشف عن طابع "اللاشخصنة" (Depsychologization) الذي تتميَّز به الأيديولوجيا، والذي تعمل كل البناءات والصروح الأيديولوجية استنادًا إليه(٣).

---

(١) المصد السابق، ص ص. ٣٠-٣١.

(2) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 3.

(3) Žižek, Slavoj: ***The Metastases of Enjoyment: Six Essays on Woman and Causality***, London & New York: Verso, 1994, P. 19.

على هذا النحو لا يُمثِّل القائد أو الزعيم السياسي النواة التي تخرج منها الأيديولوجيا، بل هو نفسه مجرّد خادم لما يسميه جيجيك "**الآخر الكبير**" (The Big Other)– مستعيرًا هذا المصطلح من لاكان– فهو يتحدث نيابة عنه، ويُمكِّنه أن يستدعي الخاضعين لكي يمتثلوا للنظام. أما هذا "الآخر الكبير" فإنه يعمل– بطريقة عكسية– على تقوية الصراع وليس إزالته. وهنا لا تتمثل المشكلة في وجود الصراع الاجتماعي في حد ذاته، وإنما في هذا العنصر المُضاف أو الزائد، وكما يقول جيجيك:

«لو لم تكن هناك سوى طبقتين متناحرتين (دون هذا العنصر المُضاف)، فلن تكون هناك عداوة طبقية، بل على العكس، سنكون أمام سلام اجتماعي حقيقي: فالطبقتان تُكمل إحداها الأخرى في نظام كلي متناغم. وبالتالي، فإن المشكلة تكمن في أن هذا العنصر المُضاف يطمس أو يُزيح "نقاء" الصراع الاجتماعي، ويعمل كقوة كبرى دافعة لاستمراره. ومن ثَمَّ فإن نقاد الماركسية الذين يؤكدون أنه لا توجد أبدًا طبقتان تتصارعان في الحياة الاجتماعية إنما يجانبهم الصواب حول هذه النقطة: **فنظرًا لأنه لا توجد– على وجه التحديد– طبقتان متصارعتان فقط، فإن الصراع الاجتماعي بينهما سيظل قائمًا**»[١].

نستنتج من هذا أنه ليست هناك أيديولوجيا مفارقة للواقع، بل هي ترتبط دائمًا بهموم الأفراد وطموحاتهم، وإلا فلن تكون صالحة عمليًا. وقد أكد جيجيك على هذا المعنى بقوله: «إذا كانت هناك خبرة أيديولوجية في أنقى صورها، أي عند "مستوى الصفر"، فإنها تتكون في اللحظة التي نَتبنَّى فيها موقفًا من السخرية، فنهزأ من الحماقات التي نحن جاهزون للاعتقاد بها، ومن ثَمَّ نصبح في مثل هذه اللحظة موضوعات خالصة للأيديولوجيا، وتُحكِّم الأيديولوجيا قبضتها علينا»[٢].

وفي الحقيقة إن كل الأيديولوجيات مرتبطة بالواقع، ولذلك يضيف جيجيك: «إن أعلى صور الأيديولوجيا لا تنصبّ على مجرّد اعتناق مجموعة من الأفكار المنفصلة عن واقع الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية، ولكنها تنصبّ على وجه التحديد على تعزيز الواقع المهيمن، والانخراط في حياة الأفراد وهمومهم وتطلعاتهم»[٣].

(**1**) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, PP. 23–24.

(**2**) Žižek: ***Living in the End Times***, P. 3.

(**3**) Žižek: ***In Defense of Lost Causes***, P. 301.

وهكذا تستهدف الأيديولوجيا الإبقاء على الوضع القائم، ومن ثَمَّ فهي مضادة للتطور والتغيير. ومن ناحية أخرى فإنها تستهدف إظهار قدرة الطبقة الحاكمة على جعل قيمها وثقافتها ومصالحها مهمة وحيوية من أجل تدعيم وترسيخ مكانتها الاجتماعية[١].

ومن الملاحظ أن جيجيك يلتقي في ذلك مع ألتوسير، الذي ذهب إلى أن وظيفة الأيديولوجيا واحدة، وهي تعزيز التماسك الاجتماعي. وقد ميّز ألتوسير بين معنين للأيديولوجيا: المعنى الإيجابي ويشير إلى الأيديولوجيا كوسيلة للتلاحم والانسجام بين الأفراد، وبينهم وبين شروط وجودهم الاجتماعي. ومن هذا المنظور فإن بنية الأيديولوجيا (أو الأساس الذي يحركها) واحدة، وكذلك وظيفتها واحدة وثابتة عبر العصور. أما المعنى السلبي فيشير إلى كون الأيديولوجيا وسيلة لتحريف الواقع. ومن هذا المنظور فإنها تُعَدُّ "تمثُّلًا" للعلاقات الخيالية بين الأفراد وبين ظروف عيشهم، وبالتالي فإنها تمثل أسطورة، على افتراض أن الأفراد لا يعيشونها كحقيقة، وإنما "كمثال" يجب الاقتداء به، ومعنى هذا أنها "لا تتوافق مع جوهر الواقع الحقيقي"، كما يظهر في الأيديولوجيات الدينية، والأخلاقية، والقانونية، والسياسية[٢].

من هنا يتضح تأثير ألتوسير في جيجيك في قوله بالوظيفة الاجتماعية التبريرية للأيديولوجيا، ووفقًا لألتوسير، إن الأيديولوجيا تتميَّز عن العلم من حيث إن وظيفتها المجتمعية العملية تفوق، من حيث الأهمية، وظيفتها النظرية (المعرفية). فالأيديولوجيا مكون عضوي في كل المجتمعات؛ حيث إن المجتمعات لا تستطيع البقاء دون هذه التشكيلات المحددة، وهذه الأنساق من التمثُّلات (على اختلاف مستوياتها)، وباختصار دون هذه الأيديولوجيات التي تفرزها المجتمعات بوصفها- أي الأيديولوجيات- العنصر الحقيقي والفَضَاء المناسب اللذَينِ لا غنى عنهما لحياتها التاريخية ومتنفسها الداخلي[٣].

نخلص مما سبق كله إلى أن **الأيديولوجيا تعمل على مستوى الممارسة المادية، وهي تُمثِّل النظام اللامرئي الذي يحافظ على حريتنا الظاهرة وممارساتنا الواقعية؛ الأمر**

---

(1) Bjerre, Henrik J. and Laustsen, Carsten B.: ***The Subject of Politics: Slavoj Žižek's Political Philosophy***, Penrith: Humanities-Ebooks, 2010, P. 25.

(2) Althusser, Louis: "***Ideology and Ideological State Apparatuses***", in: idem, *Lenin and Philosophy and Other Essays*, trans.: Ben Brewster, London & New York: Monthly Review Press, 1971, PP. 161-162.

(3) Althusser, Louis: ***For Marx***, PP. 231-232.

الذي يجعل هدفها النهائي هو حجب حقيقة الواقع. وتتمثل أخطر صور الأيديولوجيا عندما نتوهم أننا هربنا من الأيديولوجيا إلى "أحلامنا" التي تُجسِّد عالمًا مثاليًا خاصًا؛ لأننا عندئذ نظل ندور في فلك الأيديولوجيا وتأثيرها السحري (أي أننا نكون واقعين "داخل الأيديولوجيا"، وليس "خارجها")، وهذه هي المأساة التي تتمثل في أن الأيديولوجيا تُحكم قبضتها على ممارساتنا، ومجمل نشاطنا الحياتي، وطريقة إدراكنا للواقع، داخل قفص حديدي لتحركنا على طريقتها الخاصة.

ومن الملاحظ أن الأيديولوجيا تُمثِّل قوة تهيمن على الأفراد لضمان عدم خروجهم عن معطياتها الأساسية، ويُعبِّر «**توماس ريكِرت**» (Thomas Rickert) عن هذا المعنى للأيديولوجيا بقوله: «لا ينظر جيجيك إلى الأيديولوجيا في ضوء تجسُّدها الخارجي فقط، بل أيضًا بالنظر إلى العلاقات بين هذه المظاهر الخارجية والعملية المستمرة لإدماج الأفراد داخل هذه المظاهر؛ الأمر الذي يجعلها عبارة عن خليط جدلي يجمع بين ما هو تاريخي وما هو لاتاريخي، بين ما هو داخلي وما هو خارجي، بين ما هو عقلاني وما هو غير عقلاني»[١].

ويؤكد العديد من دارسي جيجيك أن الأيديولوجيا ممارسة مادية، أو تخييل من نوع ما؛ فيذهب «**روبرت بفالر**» (Robert Pfaller) إلى أنها تُجسِّد طريقة إدراكنا للناتج الفعلي للواقع ذاته[٢]. وفي موضع آخر يذهب إلى أنها ممارسة اجتماعية لأنها تكمن أساسًا في الفعل، وبما أن الأيديولوجيا ذات طابع عملي، فإنها يمكن أن تتعايش مع التشكيلات النظرية الأخرى المختلفة عنها تمامًا[٣].

كذلك يذهب «**ماثيو شارب**» إلى أن جيجيك أراد توسيع مفهوم الأيديولوجيا، ولكن بطريقة لا تجعله يدخل في نطاق المقولات الشمولية. وقد حاول توسيع مجال المصطلح لكي يواجه التيارات الليبرالية في عصر ما بعد الحداثة والتي انتقدت المصطلح وروَّجت لما أسمته "نهاية الأيديولوجيا"؛ فكانت الأيديولوجيا عنده مقولة تكشف عن جوهر الممارسات اليومية

---

(1) Rickert, Thomas: ***Acts of Enjoyment: Rhetoric, Žižek and the Return of the Subject***, New York: University of Pittsburgh Press, 2007, P. 105.

(2) Pfaller, Robert: "***Where is Your Hamster? The Concept of Ideology in Žižek's Cultural Theory***", in: G. Boucher, J. Glynos, and M. Sharpe (eds.), *Traversing the Fantasy: Critical Responses to Slavoj Žižek*, London: Ashgate, 2005, P. 107.

(3) Ibid, P. 112.

والحياتية التي يقوم بها الأفراد. والمأخذ الأساسي عليه هو أنه لم يضع حدًا لنطاق الأيديولوجيا، بحيث لا يكون المفهوم مجرّد مقولة وصفية خالصة[١].

ومن الملاحظ أن أساس الأيديولوجيا عند جيجيك هو "الواقعي" الذي يُعَدُّ النواة القوية التي تَدفع إلى إنتاج تخييلات معينة، لكنه لا يمكن إدراكه (حتى في شكله المُشَوَّه) في هذه التخييلات. ومن هنا فإن ما يجمع نقاشات جيجيك المختلفة حول الأيديولوجيا يتمثل في مُساءَلته لما يسميه لاكان "الواقعي" وهو الشيء الذي ننخرط فيه[٢]. ويؤكد «**سين شيهان**» (Seán Sheehan) أن الأيديولوجيا تُركّز أساسًا على "الواقعي"، الذي يُستخدم كعنصر للتقييد، ومقاومة أي بناء معاكس له، وهو لا يُمثِّل "الواقع" في شيء، وإنما يعمل لسد الفجوة بين "الواقع" من ناحية، و"المُتخيَّل" من ناحية أخرى[٣].

كذلك يوضح «**ماركوس بَاوند**» (Marcus Pound) أن الأيديولوجيا عند جيجيك تتجسَّد في ممارساتنا المادية، وهو في ذلك متأثر بألتوسير، الذي ذهب إلى أنها ليست مجرّد كذبة أو خدعة توظفها الطبقة الحاكمة لكسب امتيازات معينة، ولكنها تشير أساسًا إلى الطريقة التي يتم بها إدماج الأفراد وتوجيههم في المؤسّسات الاجتماعية والتربوية مثل الأسرة، والمدرسة، وفي المؤسّسات الدينية[٤].

يتبيَّن لنا أن ثَمَّة صلات واضحة بين مفهوم جيجيك للأيديولوجيا ومفهوم ألتوسير، ويؤكد «مايكل موريارتي» (Michael Moriarty) على ذلك بقوله: إن نظرية ألتوسير عن الأيديولوجيا تحتلّ مكانة كبيرة في تحليلات جيجيك[٥]. كما يذهب كلٌّ من «هنريك بجير» (Henrik Bjerre) و«كارستن لاوستسن» (Carsten Laustsen) إلى أن جيجيك صاغ مفهومه للأيديولوجيا في ضوء من نظرية ألتوسير؛ فالأيديولوجيا تُمثِّل بالنسبة لِكلٍّ منهما

---

(1) Sharpe, Matthew: ***Slavoj Žižek: A Little Piece of the Real***, London: Ashgate, 2004, P. 30.

(2) Kay, Sarah: ***Žižek: A Critical Introduction***, Cambridge: Polity Press, 2003, P. 3.

(3) Sheehan, Seán: ***Žižek: A Guide for the Perplexed***, London: Continuum, 2012, P. 27.

(4) Pound, Marcus: ***Slavoj Žižek: A (Very) Critical Introduction***, Grand Rapids: W. B. Eerdmans Publishing Co., 2008, P. 55.

(5) Moriarty, Michael: "***Žižek, Religion and Ideology***", *Paragraph*, Vol. 24, No. 2, (July 2001), P. 125.

مقومًا في كل مجتمع، كما أنها لا تعمل على تشويه الواقع بقدر ما تعمل على خلق علاقات خيالية بين الأفراد وبين شروط وجودهم الاجتماعي[١].

لكن إذا كان جيجيك يلتقي مع ألتوسير في أن الأيديولوجيا تعمل عن طريق الممارسة والفعل أكثر من عملها عن طريق النظرية، فإنه من الناحية الأخرى يحاول أن يُضفي على نظرية ألتوسير طابعًا أكثر راديكالية. فإذا كان ألتوسير محقًا في تركيزه على الوظيفة العملية للأيديولوجيا، إلا أنه ساوى في النهاية بين "الأيديولوجيا" و"الأفكار الزائفة". أما بالنسبة لجيجيك، فإن وضع الأيديولوجيا كمرادف لغياب المعرفة لا يتعدى كونه خروجًا عن الوهم، والتشويه الكامن في الواقع ذاته؛ أي عند مستوى "ممارسة" الأفراد، وليس عند مستوى "ما يؤمنون به" أو ما يعتقدونه[٢].

كذلك فثَمَّة اختلاف أساسي بين الاثنين؛ من حيث مساواة ألتوسير بين الأيديولوجيا والخضوع، أما جيجيك فيرى أن البشر خاضعون- بدرجة أو بأخرى- في كل زمان ومكان، ومن ثَمَّ فإن تركيزنا يجب أن ينصبّ على كيفية تحول الأفراد إلى كائنات خاضعة على نحو كلي. وبعبارة أخرى، إن الخضوع سمة ملازمة في كل اجتماع إنساني، أما الأيديولوجيا فإنها تمارس قبضتها الحديدية على البشر، بحيث تجعلهم تابعين على نحو تام؛ وبحيث لا يخرجون عن الإطار الذي حددته لهم. ويوضح «سين هومر» (Sean Homer) هذا الاختلاف بقوله:

«إذا كان ألتوسير قد ركّز على مسألة تحول الأفراد إلى كائنات خاضعة في ظل الأيديولوجيا، فإن جيجيك في مقابل ذلك لا يعتقد أن الأفراد يتحولون إلى خاضعين، وإنما هم بالفعل خاضعون، ومنقسمون دائمًا بين مستويات إدراكهم، ووعيهم وعدم وعيهم، ومن ثَمَّ فإن المشكلة تتمثل في كيف يمكن للأفراد- كخاضعين دائمًا وبالفعل- أن يصبحوا أكثر خضوعًا، أو فئات خاصة من البشر الخاضعين، في ظل وجود الأيديولوجيا وهيمنتها»[٣].

ومن الملاحظ أن جيجيك يقف على طرفي نقيض مع «ميشيل فوكو» (١٩٢٦-١٩٨٤)، الذي رفض وصف الأيديولوجيا بالزيف والخطأ، ورأى أن المصطلح يصعب

---

(1) Bjerre and Laustsen: ***The Subject of Politics: Slavoj Žižek's Political Philosophy***, P. 42.

(2) Kotsko, Adam: ***Žižek and Theology***, PP. 26-27.

(3) Homer, Sean: ***Slavoj Žižek and Radical Politics***, New York: Routledge, 2016, P. 15.

استخدامه؛ لأنه يفترض أن ثَمَّة حقيقة موضوعية مطابقة للواقع، وتقف الأيديولوجيا في تعارض مع هذه الحقيقة، وكذلك لأن المصطلح لا يشير إلا إلى الرؤى والتصورات الذاتية التي تحكم على الواقع من منطلق شخصي[1].

(1) Sharpe, Matthew: ***Slavoj Žižek: A Little Piece of the Real***, P. 28.

المحور الثاني: آليات الأيديولوجيا ومتطلباتها.

تتطلّب الأيديولوجيا بمعناها السالف الذكر بضع متطلبات حتى يتسنَّى لها السيطرة على إدراك الأفراد لواقعهم. أول هذه المتطلبات: "**التّخييل**"، ويتمثل الثاني في "**علاج الأزمة عن طريق الصدمة**"، ويدور الثالث حول "**تحويل الانتباه**، أما الرابع فهو "**الأنسنة الأيديولوجية**، ويتمثل الخامس في "**المتنفس الأيديولوجي**".

أولًا: «التّخييل الأيديولوجي». "Ideological Fantasy"

تستلزم الأيديولوجيا ما يدعوه جيجيك "التحويل الخيالي" (Imaginary Transformation)، وهو يعمل كمقوم ضروري وكأداة للتضمين، ويستفيد في ذلك من الخلط القائم بين ما هو زائف وما هو حقيقي[١]. كما أن التخييل لا يبدأ بتحريف الواقع، وإنما ينتهي إليه؛ وبعبارة أخرى، فإن الانحراف يُمثِّل أثرًا معكوسًا للتخييل الأيديولوجي[٢].

وإذا نظرنا إلى وظيفة التخييل، سنجده يعمل على نسج صورة محددة للعدو، وعندئذ يؤدي العدو الفعلي ذاته مهمة استكمال الفضاء الأيديولوجي؛ كما هو الحال مع النازية التي نزعت إلى بناء فكرة "المؤامرة اليهودية– البلشفية"، على اعتبار أن اليهود (وفقًا لزعم النازية) هم القوة الموضوعية التي تُهدد رفاهية الأمة الألمانية، والعقبة التي تَحول دون توحيد أوروبا وإقرار السلام فيها[٣]. والشيء نفسه ينطبق على المشروع الأمريكي المزعوم المتعلق بالحرب على الإرهاب؛ إذ نجد أن صورة العدو المُتخيَّلة هي تكريس لصورتين متعارضتين: صورة "الأصولي" الرجعي، وصورة المحتج "اليساري"[٤].

وفي الحقيقة إن التّخييل ليس عنصرًا موضوعيًا، كما أنه ليس عنصرًا ذاتيًا خالصًا في الأيديولوجيا، وإنما هو ينتمي إلى نوع من المقولات التي تجمع بين الذاتي والموضوعي[٥]. وتتمثل مهمته في تنظيم الواقع الاجتماعي من ناحية، والتعمية عن طريقة إدراكنا لهذا الواقع من ناحية أخرى[٦]. لكنه يشتغل أساسًا بأكثر من وظيفة، ويؤدي في

---

(1) Žižek: ***Living in the End Times***, P. 44.

(2) Žižek, Slavoj: ***How to Read Lacan***, London & New York: W. W. Norton & Company, Inc., 2007, P. 105.

(3) Žižek: "***A Plea for Ethical Violence***", P. 150.

(4) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 111.

(5) Žižek: ***Organs without Bodies***, P. 94.

(6) Žižek: "***How Did Marx Invent the Symptom?***", P. 314.

الأساس أدوارًا مختلفة؛ حيث يعمل كعنصر من عناصر التهدئة، وتقديم سيناريو يُمكِّننا من تحمل جحيم الآخر (العدو)[١].

لكن التساؤل الآن: **كيف يعمل التخييل الأيديولوجي على تحريف إدراك الأفراد للواقع؟**

يذهب جيجيك إلى **أن الطريقة التي يعمل من خلالها التخييل على تحريف رؤية الأفراد وإدراكهم للواقع تتمثل في حجب التناقضات الاجتماعية القائمة من ناحية، وإرجاعها إلى عنصر خارجي من ناحية أخرى.** ولذلك فإن التخييل النازي عمل على إزاحة الأسباب الموضوعية للصراع الاجتماعي، وإرجاعها إلى عنصر أجنبي دخيل يُهدِّد تماسك المجتمع الألماني، وبالتالي تم رفع اليهود أنفسهم إلى مصاف الكائن المُتخيَّل، أو القوة التي تتحكم في نسيج الحياة الاجتماعية الألمانية[٢].

من هنا فإن الأيديولوجيا لا تُنكر وجود الصراع الاجتماعي؛ لكنها مع هذا تَرُد هذا الصراع إلى أسباب وهمية، أو إلى عنصر ثانوي، وهذا العنصر "المضاد" يُمثِّل الفائض الذي يتوجب التخلص منه. وهنا نجد أن **معاداة السَّامِيّة ليست فقط واحدة من العناصر التي تستند إليها النازية، بل تصبح هي ذاتها الأيديولوجيا الأم المحركة لها.** وبعبارة أخرى إنها تُجسِّد "**المستوى الصفر**" (أو **الموضوع الخالص للأيديولوجيا**)، وهو المستوى الذي يؤسس لكل أحداثياتها. ووظيفة هذا العنصر مُزدَوجة: فهو يؤدي مهمة التنصل من الأسباب الحقيقية للصراع الاجتماعي أو "العداوة الطبقية" من جانب، ولكنه يقف وراء هذا الصراع، ويمنع إمكانية حدوث "سلام اجتماعي" حقيقي من جانب آخر[٣].

بناءً على هذا يذهب جيجيك إلى أن التفسير التقليدي لظهور النازية زائفٌ ومُضَلِّل، وهو ذلك التفسير المتمثل في أن النازيين كانوا يتلاعبون بمخاوف الطبقة الوسطى، وهي المخاوف التي نتجت عن الأزمة الاقتصادية والتغيرات الاجتماعية السريعة. وهو يرى أن الخلل المتمثل في هذا التفسير يكمن في أنه يتجاهل جذر المشكلة؛ لأنه إذا كان من الصحيح أن النازيين قاموا بالتلاعب بمخاوف الألمان واهتماماتهم، **إلا أن هذه المخاوف**

---

(1) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 18.

(2) Žižek: ***For They Know Not What They Do***, ci.

(3) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 23; Žižek, Slavoj: ***The Indivisible Remainder: An Essay on Schelling and Related Matters***, London & New York: Verso, 1996, P. 200.

والاهتمامات المشتركة كانت بالفعل نِتاجًا لمنظور أيديولوجي معين. وبعبارة أخرى، فقد أسهمت النازية نفسها في إعادة خلق هذه المخاوف، ثم قدمت نفسها بعد ذلك على أنها الحل لها[١]!

على هذا النحو يُمثِّل التخييل المقوم المركزي الذي تعمل الأيديولوجيا من خلاله، ويؤكد بعض دارسي جيجيك أن التخييل يؤدي دورًا مهمًا في الأيديولوجيا؛ فيذهب «**شيلي بريفيك**» (Shelly Brivic) إلى أن التخييل يساعد على تدعيمها عن طريق نوع من التجاوز المتأصل لموضوعها الفعلي، وبما يسمح للأفراد بالاستجابة لحدود الواقع والإذعان له[٢]. وبالمثل يذهب «**فرانسوا ديبريكس**» (François Debrix) إلى أن الأيديولوجيا عبارة عن تخييل مصنوع ومحبوك يحجب حقيقة الواقع[٣].

كذلك يذهب «**داني نوبوس**» (Dany Nobus) إلى أن الأيديولوجيا تُعَدُّ توصيفًا لمبدأ تخييلي، وتكويني في الوقت نفسه، وهو مبدأ يستهدف الاتساق والتناغم في فضائنا الاجتماعي[٤]. أما «**كريس ماكميلان**» (Chris McMillan) فيذهب إلى أن التخييل يعمل على إشباع رغبات الأفراد ذاتهم، ويخلق نوعًا من الوهم المتمثل في استمرارية الموضوع الضاغط عليهم[٥].

من هنا فإن الأيديولوجيا هي أكثر من كونها مجموعة من العناصر المختلفة التي تتشكَّل بموجب "وحدة عقدية"، كما أنها أكثر من كونها مجموعة من الأفكار والتصورات النظرية التي تحجب التناقضات الطبقية وجوانب الهيمنة السائدة، وإنما هي بالأحرى تشكيل

---

(1) Žižek, Slavoj: ***On Belief***, P. 163.

(2) Brivic, Shelly: ***Joyce through Lacan and Žižek***, New York: Palgrave, 2008, P. 81.

(3) Debrix, François: "***US Ideology and the War in Iraq***", *International Studies Review*, Vol. 7, No. 1 (Mar., 2005), P. 90.

(4) Nobus, Dany: "***Beware of the Anacoluthon! On Žižek's Ideology***", in: Vighi, Fabio & Feldner, Heiko (eds.), *Did Somebody Say Ideology? On Slavoj Žižek and Consequences*, Cambridge: Cambridge Scholars Publishing, 2007, PP. 134-145.

(5) McMillan, Chris: ***Žižek and Communist Strategy: On the Disavowed Foundations of Global Capitalism***, Edinburgh: Edinburgh Univ. Press, 2012, P. 57.

يقوم أساسًا على التخييل والمتمثل في نقطة المتعة المفرطة واللاعقلانية التي تُشيِّد هذا الصرح الأيديولوجي أو ذاك[١].

وإذا كانت الأيديولوجيا تستند إلى بناء تخييلي؛ بمعنى أنها لا تستهدف الهروب من الواقع بقدر ما تستهدف تقديم الواقع ذاته بوصفه مجردًا من نواته الأصلية، فإن هذا المفهوم للأيديولوجيا يتقاطع مع تعريف «حنَّه أرندت» (١٩٠٦-١٩٧٥) للأيديولوجيا بوصفها بِناءً تخييليًا شديد السلطوية يستهدف تحقيق النظام، والتوحد، عن طريق الخداع والأكاذيب. والأيديولوجيا بهذا المعنى لا تتحقق إلا في الأنظمة الشمولية[٢].

لكن وجه الاختلاف بين جيجيك وأرندت يتمثل في أن الأيديولوجيا عند الأخيرة ظاهرة حديثة نسبيًا، ولا تؤدي إلا أدوارًا تافهة في الحياة السياسية. أما بالنسبة لجيجيك، فالأيديولوجيا قوة سياسية تُشكِّل مسار رؤيتنا للواقع، وتؤدي أدوارًا بالغة الأهمية والخطورة في تصريف الشئون الإنسانية، وهي دائمًا ما تكون فعّالة ومتجسِّدة في واقعنا الاجتماعي[٣].

وخلاصة القول: إن التخييل الأيديولوجي يعمل على مستوى رؤية الأفراد للواقع؛ بحيث يكون إدراكهم متوافقًا مع بنية النظام القائم. ومن ثَمَّ فإن وظيفته تتمثل في كونه عاملًا لربط الأفراد بمجموعة محددة من العلاقات الاجتماعية، وذلك من خلال التأثير في طريقة إدراكهم، وتقييد أفقهم، بحيث تلتقي رغباتهم مع العلاقات الهرمية وأنماط الهيمنة السائدة؛ الأمر الذي يجعل من الصعوبة مقاومة هذا النوع من المتعة التي يوفرها التخييل الأيديولوجي[٤].

ثانيًا: «الأزمة كعلاج بالصدمة». "Crisis As Shock Therapy"

يذهب جيجيك إلى أن "الأزمة" التي قد يمرّ بها مجتمع معين، والتي قد تُفضي إلى كارثة وصدمة بالنسبة لأفراد المجتمع، قد تكون فرصة مُواتية لإعادة تشكُّل الأيديولوجيا من

---

(1) Dean, Jodi: ***Žižek's Politics***, London: Routledge, 2006, P. 8.

(2) Sharpe, Matthew: "***When the Logics of the World Collapse: Žižek with and against Arendt on 'Totalitarianism"***, *Subjectivity* Vol. 3, No. 1 (Apr., 2010), P. 53.

(3) Dolan, Frederick M.: "***Political Action and the Unconscious: Arendt and Lacan on Decentering the Subject***", *Political Theory*, Vol. 23, No. 2 (May 1995), P. 346.

(4) Dean, Jodi: ***Žižek's Politics***, P. 13.

جديد. وهنا نكون بإزاء "علاج للأزمة عن طريق الصدمة". ويضرب جيجيك أمثلة على ذلك من التاريخ المعاصر: ففي الثلاثينيات من القرن الماضي، طرح النازيون فكرة (المؤامرة اليهودية) كتفسير للمشكلات التي يعاني منها الألمان، ولم يكن لهتلر أن ينجح في المنافسة السياسية لولا استغلاله للأزمة التي كانت تمرّ بها «جمهورية فايمار» (١٩١٩-١٩٣٣)، وهي الأزمة التي أفضت إلى صدمة للجماهير؛ حيث شُلت الحركة الطبيعية للدولة في جميع المجالات تقريبًا(١).

لقد فسَّر هتلر أسباب الأزمة باستدعاء صورة "اليهودي الأُسْطورِي"، الذي يسعى منذ قديم الأزل إلى السيطرة على العالم. وبهذه الطريقة استطاع الهروب من الأزمة الحقيقية نتيجة للصدمة التي تلقتها الجماهير الألمانية. وعلى هذا النحو، فإن الأساس الصنمي في الأيديولوجيا النازية والذي يُمثِّل أساس تفريغ كل الموضوعات الأيديولوجية الأخرى، هو "معاداة السَّامِيّة"، ومن هنا كانت المؤامرة اليهودية- وفقًا لزعم النازية- وراء فوضى السوق، والبطالة، والانحلال الأخلاقي، والاضطرابات الاجتماعية(٢).

ويوضح جيجيك أن المشكلة الكامنة في النازية تتمثل في نظام العلاقات الرأسمالية ذاتها التي تدور في فلكها، وليست في معاداة اليهود أنفسهم. ذلك أن التبرير الذاتي للرأسمالية يعمل باستمرار على تفسير الأزمة الحقيقية على نحو يبرر إدخال عنصر خارجي وكأنه هو سبب الأزمة. وهذا "العنصر الأجنبي" يُمثِّل في نهاية المطاف آلة الدفع الذاتي للرأسمالية نفسها(٣).

وتُعَدُّ الأزمة الاقتصادية عام ٢٠٠٨ من الأمثلة الحيّة التي يقاربها جيجيك لتوضيح هذا المستلزم للأيديولوجيا، وهو مثال يبرهن على أن الليبرالية تستفيد دائمًا من إخفاقاتها. فبدلًا من التفكير في أسباب الانهيار المالي الذي تسبَّب في صدمة وذعر، كان أول رد فعل هو "**العودة إلى الأصول**" ذاتها، وقد تمثلت هذه العودة في التمسك بالفرضيات الأساسية للأيديولوجيا الليبرالية. وبدلًا من أن تحل محلها أيديولوجيا أخرى تعمل على تدعيم سياسات اقتصادية عادلة، تم تعزيز أيديولوجية السوق الحر. والمفارقة تتمثل في أنه تم تدعيمها بدرجة أكبر هذه المرة. ولهذا يستطرد جيجيك قائلًا: «إن الخطر الأكبر في أي مجتمع يتمثل

---

(1) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 17.

(2) Žižek, Slavoj: ***Less Than Nothing: Hegel and the Shadow of Dialectical Materialism***, London & New York: Verso, 2012, P. 679.

(3) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 35.

في أن الانهيار المستمر قد يؤدي إلى استغلال السلطة الحاكمة له في صيغة "**مبدأ الصدمة**" "**Shock Doctrine**"؛ والمتمثل في تمهيد الطريق لإدخال إصلاحات أكثر جذرية لتعزيز الأيديولوجيا المهيمنة»[١].

من هنا وبدلًا من إعادة النظر في العيوب المتأصلة في بنية الأيديولوجيا الليبرالية، تم استغلال المأساة الناجمة عن الانهيار، وذلك من ناحيتين:

الأولى، إدخال إصلاحات تتركّز حول إضفاء صبغة أكثر ليبرالية على مجال السوق، ومن ثَمَّ إضفاء المشروعية على "الليبرالية الجديدة"، وتمرير الرأسمالية على أنها النظام التي يُجسِّد المؤسّسات البرجوازية الطبيعية، في مقابل الأنظمة الاقتصادية الأخرى التي تتضمَّن مؤسسات اصطناعية.

والثانية، تهيئة الأجواء مرة أخرى لإعادة تشكيل السوق الحر بطريقة جذرية بدلًا من التخلي عنها. فتوظيف الصدمة جاء من أجل إعادة خلق الشروط التي تنحو إلى المزيد من الليبرالية الاقتصادية. وإن اللجوء إلى مثل هذا العلاج بالصدمة ينبع أساسًا من الجوهر اليوتوبي للأيديولوجيا الليبرالية؛ حيث نزع أصوليو السوق إلى تفسير النتائج المدمرة لتطبيق نماذجهم، وألقوا اللومَ على أصحاب الأصوات التي تنادي بتدخل الدولة في الاقتصاد، وردوا كل أسباب الفشل والانهيار إلى التنازلات التي قدمها هؤلاء في برامجهم الاقتصادية[٢].

إن استغلال الأزمة، وتحويلها إلى تهديد أكبر؛ لتحقيق أهداف ومكاسب معينة، إنما هو نوع من الخداع الأيديولوجي. ولذلك فإن الفشل في التعامل مع هذه الأزمة راجع أساسًا إلى أن القائمين على الأمر كانوا يفتقرون إلى أي رؤية تكشف عن جذورها، وهي الجذور الكامنة في صلب البنى والمؤسسات الاقتصادية الرأسمالية التي تقوم على الاستغلال والاحتكار، والمضاربات. ولهذا يذهب جيجيك إلى أنه على الرغم من أن الأزمة الحالية تَبْدو وكأنها أزمة اقتصادية وتقتصر على النظام المالي، فإنها في أبعادها الأساسية أزمة أيديولوجية– سياسية[٣].

إن الأيديولوجيا الليبرالية، ونظرًا لمحدوديتها؛ حيث أضحت قِناعًا للدفاع عن مصالح اقتصادية ضيقة، فإنها تسعى إلى تمييع الأزمات التي قد يمرّ بها المجتمع من حين لآخر.

(**1**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 18.

(**2**) Ibid, P. 19.

(**3**) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 38.

ومن المنطلق ذاته، تحاول تمويه الأزمات بل والاستفادة منها (كصدمات) باعتبار أنها صورة من صور التدمير الخلاَّق الذي تتقدم الرأسمالية من خلاله بصورة منتظمة. ولهذا فإن حالة الذعر التي أثارتها السلطة الحاكمة في أمريكا بعد الأزمة كان الهدف منها خلق صدمة بين الجمهور العريض تُنبئ بأن "أساسيات طريقتنا في الحياة صارت معرضة للخطر"! وبهذه الطريقة تم تمرير الحل المقترح، وهو حل رغم كونه غير عادل، فإنه (حسب التهيئة المقدمة له) يُمثِّل الحل الوحيد الذي لا مفر منه[1]!

وفي الحقيقة إن الاستفادة أيديولوجيًا من الأزمة ظاهرة متكررة. على سبيل التبسيط والإسقاط على واقعنا المصري، يمكن أن نتذكر خطاب الرئيس الأسبق "**مبارك**" حول الأزمة التي وقعت عقب اندلاع الثورة في يناير ٢٠١١. فبدلًا من محاولة الوقوف على الأسباب الحقيقية التي أفضت إلى وقوع الاحتجاجات، نزع إلى تفسيرها كنوع من العلاج بالصدمة، وهو ما يمكن أن نتلمَّسه في خطابه الثاني خلال الثورة والذي ألمح فيه إلى الاختيار بين: "**أنا**" **(الأمن والاستقرار)، أو** "**الفوضى**" **(اتباع القوى الفوضوية، خاصة مع غياب قوى سياسية منظمة تتسلم السلطة إذا رحل).**

إن وضع الاختيار على هذا النحو يُمثِّل نوعًا من **استغلال الأزمة، ومحاولة تفسيرها بصدمة لجماهير الشعب، وهذا النوع من التفسير لا يقف على الأسباب الحقيقية للأزمة، وإنما يستهدف الحفاظ على مكتسباته، والخوف على مستقبله في السنوات الأخيرة.** وبعبارة أخرى فإن استغلال حالة الفوضى، وتوظيفها كصدمة، كان بدافع **إنتاج ظروف جديدة لتثبيت دعائم نظامه.** إن هذا التفسير يُمثِّل تشويهًا لطريقة إدراك المصريين لطبيعة ما كانوا يستهدفونه من تغيير حقيقي. ولهذا يُقارب جيجيك– في هذا المثال تحديدًا– موضحًا:

«**إن ردّ الفعل المتوقع من هذا التفسير هو أنه سيتم مرارًا وتكرارًا إخبار الشعوب العربية أن الثورات الحالية، وكما حدث في إيران من قبل، ستنتهي– لو نجحت– بوصول الإسلاميين المتشدّدين إلى السلطة. وبالتالي، سيظهر مبارك بأثر رجعي على أنه الأقل شرًا، وسيكون واضحًا فحوى الرسالة الأيديولوجية التي ستترسب في الأذهان بعد ذلك: "من الأفضل الإبقاء على الشيطان الذي نعرفه من أن نسير مع اليساريين، والتحرريين، والإسلاميين الراديكاليين"**»[2].

(**1**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. P. 22, 23.

(**2**) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 75.

إن علاج الأزمة عن طريق الصدمة يُعَدُّ هو التفسير "النمطي" الذي تعمل الأيديولوجيا الحاكمة من خلاله كسبيل لمواجهة المشروعات والحلول الأخرى. فهي **تشتغل على أساس وضع الأفراد أمام بديلين متنافسين ومتصارعين فقط، وبحيث تعمل في صيغة: "إما...، أو..."، وكأنه ليس من خيار آخر ثالث سوى أن يعيش الأفراد في ظل هذا النظام القائم، أو الدخول في فوضى مثلًا. ولهذا نجد الأيديولوجيا المهيمنة تُعيد إنتاج نفسها مرات ومرات على طريقة (تناسخ الأرواح)؛ من أجل تدعيم أركانها مرة أخرى، وإعادة بعث نفسها من جديد.** فالأزمة يمكن أن يتم تجاوزها بسرعة عن طريق صدمة الأفراد، وتحويل أذهانهم عن الأسباب الحقيقية للمشكلة نفسها.

نستنتج من ذلك أن المَهَمّة المركزية للأيديولوجيا هو تعزيز الادعاء الذي يُلقي بأسباب الأزمة، والمسئولية على الانهيار في حالة الأزمة الاقتصادية، ليس على عاتق النظام الرأسمالي في حد ذاته، وإنما على انحرافاته الثانوية والطارئة (الأجهزة البيروقراطية للدولة، واللوائح التنظيمية ذات الطابع المتراخي، والرشوة، وفساد المؤسّسات الماليّة). وما ينطبق على الرأسمالية في هذا المثال، ينطبق بالمثل على الأنظمة الاشتراكية التي يحاول مناصروها إنقاذ الاشتراكية بالادعاء بأن فشل الديمقراطيات الشعبية المعاصرة يُمثِّل فشلًا للنسخة غير الأصيلة من الاشتراكية، وليس للفكرة الاشتراكية في ذاتها؛ الأمر الذي يؤدى بهذه الأنظمة إلى الشروع المتكرر في عمل إصلاحات جذرية لتعيد ترسيخ أقدامها من جديد بدلًا من الإطاحة بالبنى والأصول التي تقوم عليها، والتي ثبت فشلها عمليًا[1].

ثالثًا: تحويل الانتباه، أو انحراف طريقة الإدراك:

يُعَدُّ تحويل الانتباه من بين الآليات التي تشتغل الأيديولوجيا من خلالها، وذلك لترسيخ دعائمها، والتحكم في مسار رؤية الأفراد للواقع، ويتم هذا عن طريق خلق مناخ لتوجيه أذهانهم نحو قضايا بعينها، وعلى حدّ تعبير جيجيك: «في كل صرح أيديولوجي، هناك نواة تتمثل في قدرة هذا البناء على تجاوز العيوب المترسخة في الأيديولوجيات الأخرى؛ لأنه يتعيَّن على الأيديولوجيا لكي تصبح فعالة، ومن أجل أن تسْتَهْوِي الأفراد فعليًا وتَجذِبهم إليها، ولكي تُخضع طريقة إدراكهم لأحداثياتها، أن تتضمَّن نوعًا من التلاعب باهتماماتهم الأساسية، وبحيث لا تكون الأيديولوجيا مجرّد أداة لإضفاء المشروعية على السلطة الحاكمة (كأن تتضمَّن مثلًا مجموعة من الأفكار عن التضامن الاجتماعي، والعدالة، والانتماء للوطن)»[2].

---

(1) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 19.

(2) Žižek: ***The Plague of Fantasies***, P. 28.

من هنا يستهدف تحويل الانتباه إلهاء الأفراد عن القضايا الأساسية والمشكلات الكبرى التي تشغلهم. وتشتغل الأيديولوجيا من خلال هذه الآلية كشاشة كلية تعمل بطريقة غير مباشرة على تحريف إدراك الأفراد، وقدرتهم على الإمساك بحقيقة الواقع[١]. ويؤكد جيجيك أن الخداع الأيديولوجي من شأنه أن يكشف عن العداوات المتأصلة والتي لا تستطيع الصياغة الواضحة للأيديولوجيا أن تستوعبها. ومن هنا يتعيَّن على الأيديولوجيا لكي تعمل بصورة منتظمة أن تلتزم بطابع من الانحراف الحاد والدائم، وأن تكشف عن العداوات المتأصلة في الطبيعة الخارجية لوجودها المادي[٢].

وبالنظر إلى أن الأيديولوجيا تعمل على فرض خيار زائف – كما هو الحال مع الفكرة الأمريكية المتعلقة «بالحرب على الإرهاب»– فإنها تستهدف عن طريق ذلك التعمية عن تعقيدات الواقع وغموضه، للترويج لفكرة أننا جميعًا يجب أن نشارك في صراعٍ مُميت من أجل حماية مصير العالم الحر، ومَنْ لا يشارك في مثل هذه الحرب، فهو يقف ضد السلام والحرية والديمقراطية[٣].

ويعود جيجيك إلى الأزمة الاقتصادية، حيث يرى أن الاجراءات المُتَّخَذة لمواجهتها والتي جاءت ممثلة في إعادة هيكلة المؤسّسات الرأسمالية على نحو يعمل زيادة استقلالية الأفراد وتدعيم حرياتهم الاقتصادية بشكل أكبر، إن هذه الاجراءات كانت بهدف تدعيم الأيديولوجيا الليبرالية ذاتها[٤]. أي أنه بدلًا من أن تواجه هذه الأيديولوجيا نفسها بإعادة النظر في الأزمات الكامنة في أصولها، ومُساءَلة الفرضيات التي تتبني عليها، اهتمت بالعواقب فقط، وعملت على تدعيم السوق الحر؛ أي تدعيم شروط وجودها ذاتها؛ فركزت أول ما ركزت على تقليل تدخل الدولة إلى أقصى درجة ممكنة.

هنا تعود الوظيفة التبريرية للأيديولوجيا؛ حيث إنها توهمنا أنها ليست الأفضل على نحو مطلق، ولكنها الأقل سوءًا؛ الأمر الذي يجعل الأفراد يقعون في فَخّها والمتمثل في أن أي تغيير جذري من شأنه أن يجعل الأمور أسوأ. ولهذا يتم تفسير الأزمة بإرجاعها إلى أسباب أخلاقية ودينية وليست اقتصادية، ويَذكر جيجيك أن الكنيسة الكاثوليكية بقيادة بابا الفاتيكان "بندكتس السادس عشر" وظف الانهيار الاقتصادي للتعمية عن الأصول الحقيقية

(**1**) Žižek: ***The Parallax View***, P. 26.
(**2**) Žižek: ***The Plague of Fantasies***, P. 2.
(**3**) Žižek: ***Less Than Nothing***, PP. 801–802.
(**4**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 32.

للأزمة، وهو ما ظهر في الدعاية الدينية الفعّالة التي تم ترويجها؛ مُرجعًا أسباب الانهيار إلى "**جشع الأفراد**"، مُعتبرًا أن "القناعة كنزٌ". ويُدلِّل جيجيك على ذلك بكلمة البابا التي جاء فيها: «**هذا يثبت مرة أخرى أن كل شيء فَانٍ، وأن كلمة الله هي الباقية!**»[١].

إن الأيديولوجيا تنزع إلى تركيز انتباه الأفراد على مسائل من قبيل خطايا البشر وذنوبهم؛ مثلما يتم تفسير ذلك دينيًا بطريقة رجعية. ولذلك يعمل التضمين الأيديولوجي كوسيلة للتغطية على نتائج غير مقبولة سياسيًا، والتركيز على قضايا ثانوية. ولهذا السبب **لا يساير جيجيك المفكرين الليبراليين الذين يشجبون "السلطة الأبوية" Patriarchy، مُركزين بؤرة اهتمامهم على تحجيم دورها. إنه يَعيب عليهم استغراقهم في دراسة هذه المسألة؛ لأنهم بذلك يتغافلون عن المشكلات الأساسية الكامنة في أيديولوجيتهم ذاتها، ويهتمون بمسائل أقل أهمية**، وعلى حد تعبيره: «**إن الادّعاء السائد بأن السلطة الأبوية لا تزال مهيمنة، إنما هو شكل من أشكال الأيديولوجيا المهيمنة**، وتتمثل وظيفته في التهرب من المأزق الكامن في الطابع الاستهلاكي للرأسمالية، والإباحية التي تهيمن على مجمل عصرنا»[٢].

من هذا المنطلق يؤكد جيجيك أنه يتعيَّن علينا أن نكون على حذر من **الخلط بين الأيديولوجيا الحاكمة Ruling Ideology فعليًا من جانب، والأيديولوجيا التي تَبْدو وكأنها مهيمنة من جانب آخر**. كما يتعيَّن علينا أن نضع في أذهاننا ما قاله «فالتر بنيامين» (Walter Benjamin) بأنه لا يكفي أن نتساءل: **كيف يمكن لنظرية معينة (أو لفن معين) أن تُحدِّد موقعها من الصراعات الاجتماعية؟ بل يجب علينا أن نتساءل: كيف يمكن لهذه النظرية أن تقوم بوظائفها الفعالة إزاء هذه الصراعات؟ فعلى مستوى الجنس في عالمنا المعاصر، ليست "النزعة الأبوية" هي الأيديولوجيا المهيمنة، وإنما الليبرالية الإباحية التي تتمثل في حرية الدعارة، وما إلى ذلك. وبالمثل ففي الفن تسيطر الاستفزازات في شكل استعراضات مثيرة على أنها هي القاعدة، وإن مثال الفن يندمج بالكامل مع مثال المؤسّسات الأخرى**[٣].

كذلك ينتقد جيجيك مفكري الاتجاه النقدي لمدرسة فرانكفورت لانشغالهم عن مسألة الصراع الطبقي، واستغراقهم في مسائل التعددية الثقافية، والهوية، والتمييز على أساس

(**1**) Ibid, P. P. 28, 35.

(**2**) Žižek: ***Living in the End Times***, P. 50.

(**3**) Žižek: ***The Universal Exception***, P. 238.

الجنس؛ لأنهم بذلك يتحولون في أفكارهم إلى موضوعات لطيفة– على حدّ تعبيره– وقد صيغت وفق موضة الدراسات الثقافية الأنيقة[١].

ويعتقد جيجيك أن صمت هؤلاء المفكرين هو المسئول من الناحية العملية عن الاستقرار بعيد المدى للنظام الرأسمالي؛ حيث أصبح المقعد الأكاديمي بالنسبة لهم هدفًا مهنيًا ثابتًا، ناهيك عن أن أعدادًا كبيرة منهم توظف أموالها في سوق الأوراق المالية. إن ما يثير فزعهم هو التغيير الثوري الذي من شأنه أن يزعزع بيئتهم المعيشية التافهة. ولذلك فإن حماستهم المتزايدة في معالجة هذه المسائل ليست في نهاية المطاف سوى مشاعر زائفة، وحِيَل وهمية ضد ما يهدد تماهيهم الأكثر عمقًا مع الرأسمالية، ومن هذا الجانب فإن أفكارهم تُمثِّل نوعًا من الطقوس القهرية التي يهيمن عليها فكرة مفادها: "**هيا بنا نتحدث كثيرًا، وبقدر الإمكان، عن ضرورة التغيير، شرط أن نضمن أنه لن يتغير أي شيء في الواقع**"![٢].

من هنا فإن نقد جيجيك لهؤلاء المفكرين نابع من كون الموضوعات التي يتناقشون حولها تافهة مقارنة بهيمنة النظام الرأسمالي العالمي، وما ينتج عنه من تدمير للبيئة، وإنتاج للإرهاب، وموت الآلاف من البشر؛ الأمر الذي يَفرِض علينا معالجة قضايا الاضطهاد، والعنف الاجتماعي، والصراعات الدينية والطائفية، في ضوء الصراعات الكامنة في قلب الرأسمالية، وفي ضوء المشكلات المتجذرة في الإطار الأيديولوجي الليبرالي المهيمن[٣].

ويستنتج جيجيك من ذلك أن **الليبرالية مصابة بحالة من العمى الأيديولوجي، الذي تحاول نقله إلى الأفراد في جميع أنحاء العالم، ويشير في ذلك إلى مليارات الدولارات التي تمّ ضخّها في قلب النظام المصرفي العالمي قبيل الانهيار المالي، ولم يتم استخدام هذه المليارات من أجل مكافحة الفقر في العالم الثالث، أو التقليل من آثار التلوث الذي يهدد البيئة**. وهو الأمر الذي قاده إلى التأكيد على **أن رأس المال أصبح صنمًا يُشكل واقعنا، وقد صار كذلك بقدرٍ كبيرٍ من التسلط أقوى من الاحتياجات والمتطلبات الأكثر إلحاحًا في حياتنا الطبيعية والاجتماعية**[٤].

رابعًا: «الأنسنة الأيديولوجية». "Ideological Humanization"

مثلما تستلزم الأيديولوجيا التّخييل، وتحويل الانتباه، فإنها تستلزم أيضًا ما يسميه

(**1**) Žižek: "***Lenin's Choice***", P. 171.

(**2**) Ibid, PP. 171–172.

(**3**) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 48.

(**4**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, PP. 80–81.

جيجيك «الأنسنة». وتُمثِّل هذه الآلية استراتيجية فعّالة وشديدة الخصوبة؛ لاستمالة الآخرين إليها، وبحيث يتم ممارسة الأيديولوجيا ليس على أساس أننا معصومون من الخطأ، وإنما على أساس أننا بشرٌ نخطئ أحيانًا ونُصيب في أحيان أخرى.

وإذا نظرنا إلى وظيفة هذه الآلية، سنجدها تتمثل في تعزيز أهداف الأيديولوجيا من ناحية، وخلق نوع من التضييق بالنسبة لإدراك الأفراد من حيث المدى المسموح التفكير فيه من ناحية أخرى، وبحيث ينظرون إلى النشاط الثانوي للأيديولوجيا على أنه الغاية أو أقصى ما تطمح إليه[١]. وفي الواقع إن هذا المقوم يفترق عن الكذب الصريح، وإنْ كان يلتقي معه في أحد الوجوه. وبعبارة أخرى، هناك خط رفيع يفصل الأنسنة الأيديولوجية عن الكذب والخداع السياسي المباشر؛ إذ إن ما يَهُمُّ في مثل هذا الفضاء الذي تعمل الأيديولوجيا على أنسنته هو تعزيز نوع من الخبرة الحميمة، وليست الحقيقة ذاتها[٢].

وانطلاقًا من هذا المستلزم، **يُحلِّل جيجيك الأيديولوجيا المحركة لوسائل الإعلام الإسرائيلية، حيث يستهوِيها التطرق إلى عيوب الجنود الإسرائيليين، وحالتهم النفسية، ولا تُظهرهم بأنهم قتلة أو آلات صماء تُنفذ أوامر القادة، كما لا تُقدِّمهم على أنهم أبطال خارقين، وإنما كأشخاص عاديين يحاربون من أجل أُمتهم، ومن ثَمَّ فإنهم قد يُخطئون أحيانًا.**

وعلى سبيل المثال، عندما هدم الجيش الإسرائيلي في يناير ٢٠٠٣ منزلًا لعائلة "إرهابي" مشتبه به، فعل ذلك بلطف شديد، حتى إنه ساعد أفراد الأسرة على نقل أثاثها قبل تدمير المنزل. والصورة نفسها تتكرر في حادثة مشابهة عندما كان أحد الجنود الإسرائيليين يبحث في أحد المنازل عن فلسطينيين مُشتبَه بهم، فنادت رَبَّةُ البيتِ ابنتَها باسمها حتى لا يُصيبها الهلع. وعندما سمع الجندي نداء الأم، اكتشف أن اسم الابنة هو اسم ابنته نفسه، فما كان منه إلا أن أخرج صورة ابنته وأعطاها للأم الفلسطينية في مشهد عاطفي، وكأن لسان حاله يقول: "**لا يجب أن تُعمينا الاختلافات السياسية عن أننا جميعًا بشرٌ نَحمِل مشاعر الوُدّ والمحبة، ونتقاسم سويًا الهموم والأحزان**". لكن ليس من الصعب فضح نظرة التعاطف هذه؛ فإنَّ مثل هذا الرد يُخفي وراءه قِناعًا زائفًا؛ حتى إذا ما سألته الأم: **إذا كنتَ**

---

(1) Žižek: ***Less Than Nothing***, P. 499.

(2) Žižek: ***Living in the End Times***, P. 59.

حقًا إنسانًا، فلماذا تفعل ما تفعله الآن؟، جاءت الإجابة الجاهزة: **إنني لا أحب عمل ذلك، ولكن واجبي هو الذي يَفرِضه عليّ**[١]**!**

تسعى الأيديولوجيا إذن إلى تقنيع ممارساتها وتهذيبها، وخاصة أُفُقها الذي قد يبدو في الظاهر أنه (متسامح) والذي لا تستطيع إلا أن تُجاهر به. ولهذا فهي تستهدف تشويه طريقة إدراكنا لحقيقة ما يجري في الواقع، وذلك عن طريق الزيادة في جرعة الإحسان. ولذلك– وكما يشير جيجيك– **فإن الطريقة التي يتم بها تقديم صورة الجندي الإسرائيلي في الإعلام أمر بالغ الأهمية؛ لأنها تُقدِّمه على أنه يقوم بواجبه الوطني**، ومن ثَمَّ فإنها في حقيقتها تُجسِّد الأيديولوجيا في أنقى صورها[٢].

من ناحية أخرى يرى جيجيك أن التركيز على الخبرة المؤلمة لليهود خلال حكم النازية من شأنه أن يعمل على طمس الخلفية الأخلاقية– السياسية للصراع الدائر حاليًا بين الإسرائيليين والفلسطينيين، بما في ذلك المجازر التي فعلها الجيش الإسرائيلي في لبنان؛ مثل مذبحة صبرا وشاتيلا، وغيرها. ولذلك فإن هذه الأنسنة الأيديولوجية تستهدف التعتيم على القضية الرئيسة المتمثلة في ضرورة التحليل السياسي الصارم لما يجري في ضوء النشاط العسكري الذي فعلته إسرائيل ولا تزال حتى الآن[٣].

وبالنظر إلى هذه الصورة الإنسانية للجنود الإسرائيليين، والتي يحاول الكِيان الصَهيوني توصيلها من حين لآخر، يكشف جيجيك عن الأهداف التي ترمي إليها، وذلك من خلال جانبين:

الأول: تأكيد الفجوة بين الواقع المعقّد الذي يعيش فيه الجندي الإسرائيلي، والدور الذي يتعيَّن عليه القيام به حتى لو تعارض مع القوانين والمبادئ الأخلاقية، أو تنافى مع طبيعته وفطرته الإنسانية. وهنا نجد أن الجندي الإسرائيلي، رغم اعترافه بضعفه الإنساني، فإنه لا يخاف على فقدان حياته بقدر ما يخشى من زوال دولة إسرائيل ذاتها.

الثاني: إضفاء علاقة "روحية" حميمة على الممارسات اللاإنسانية. وفي الحالات السابقة نجد أن الخبرات القاسية التي مرّ بها اليهود (حالة الطوارئ الدائمة التي ظلوا لفترات

---

(1) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 41.

(2) Žižek, Slavoj: ***The Puppet and the Dwarf: The Perverse Core of Christianity***, Cambridge, MA: MIT Press, 2003, P. 151.

(3) Žižek: ***Living in the End Times***, P. 58; Žižek: ***Less Than Nothing***, P. 278.

طويلة يعيشون فيها، والتهديد بالإبادة، وغير ذلك) عادة ما يتم استحضارها لإخفاء الوجه البشع للسياسة الإسرائيلية، وإقصاء الطرف الفلسطيني، وتجريده من أرضه، والظهور على مسرح الأحداث من وراء حجاب[١].

كذلك يكشف جيجيك عن مدى زيف الصورة الإعلامية في الغرب لتقديم إسرائيل وكأنها تُجسِّد الليبرالية، والتسامح، والدولة التي تحارب ضد الفاشيات الدينية. ويوضح أن إسرائيل قامت أساسًا عن طريق "**العنف المُؤسِّس**" لأصولها "غير الشرعية"، وهي الأصول التي قامت بترسيخها في الماضي البعيد الذي طمسته وحرفته من أجل تدعيم العقيدة الصَهيونية عن طريق مجموعة من الأكاذيب[٢]. كما يكشف أن الصورة التي تُقدِّمها إسرائيل عن نفسها تُخفي حقيقة بنائها للمستوطنات، ووقوفها ضد قيام دولة فلسطينية موحدة، واستيلائها التدريجي على الأرض من خلال بناء مستوطنات جديدة في الضفة الغربية، وخنق الاقتصاد الفلسطيني، والضغط على المزارعين لترك أرضهم[٣].

وإذا كان الإعلام الغربي يحاول إغفال الطابع العنيف الذي تنتهجه إسرائيل، والتركيز على ممارسات العنف من جانب بعض الفلسطينيين، فإن جيجيك يذهب في المقابل إلى أن **إدانة إسرائيل لما تسميه بالعنف الفلسطيني إنما هو غطاء للتعمية عن المشكلة الحقيقية المتمثلة في عنف الكِيان الصَهيوني، وبنائها للحائط العازل، وهي سياسة للتطهير العرقي في أنقى صورها**. والصورة نفسها نجدها عندما يُحاصر الفلسطينيون تدريجيًا وتُستقطع مناطقهم، وتُهدم بيوتهم، ويُجردون من حقهم في الإقامة في القدس، ويُضايقون في الحصول على أرزاقهم، فتظهر المحكمة العليا بوجهين مختلفين؛ حيث تَحكُم لصالح فلسطيني واحد، ولكنها تحكم أيضًا بطرد عدد لا يحصى من الفلسطينيين[٤]**!**

إن الأيديولوجيا تستهدف تهذيب طابعها المتطرف الكامن في جوهر بنيتها؛ فهي تستهدف إضفاء سمة إنسانية على "الفعل" و"الفاعل" في الوقت نفسه، عن طريق إظهار نوع من التضامن مع الآخرين. وهنا يكمن الغموض الأيديولوجي المتمثل- على سبيل المثال- في تجسيد الإعلام الإسرائيلي للجنود وكأنهم يقومون بدورهم "كبشر عاديين"، لكنهم – كما يؤكد جيجيك- يُجسِّدون الأقنعة لإضفاء طابع أخلاقي على الممارسات الإسرائيلية. **وهذا**

(**1**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, PP. 41-42.

(**2**) Žižek: ***Violence***, P. 117.

(**3**) Žižek: ***Living in the End Times***, P. 147.

(**4**) Loc. Cit.

النوع من التعمية يظهر عند ذروته الساخرة ويتكشّف لنا في صورته الوقحة جدًا عندما يظهر "شارون" في الإعلام الإسرائيلي كإنسان وديع في صورة مزارع مسالم داخل مزرعته[١]!

تأسيسًا على هذا، فإن الأيديولوجيا تعمل على تجميل صورتها لكي لا ينكشف مضمونها وتظهر بنيتها القمعية؛ كما يحاول الإعلام الإسرائيلي أن يقوم بغسيل مخ ليُخفي وراءه حقيقة بشعة لمجتمع عنصري يمارس كل أشكال العنف والإرهاب. ولهذا تسعى الأيديولوجيا إلى فرض نظامها بطريقة قسرية، رغم ما قد يبدو على وجهها من سمات النبل. لكن إشكالية زيف الأنسنة سرعان ما تتكشّف إذا تعمّقنا في جوهرها ولم نقف عند مستوى مظاهرها الخارجية. وفي تصوير بليغ يُشبِّه جيجيك الأيديولوجيا بالمنافق الذي يبتسم في وجهك ثُم يطعنك في الظهر! وفي تشبيه آخر، يساوِي بينها وبين مصاصي الدماء الذين يتربصون بك في أماكن عملك، وفي علاقاتك الأسرية ومع أصدقائك؛ لكنهم يستنزفون طاقتك الإيجابية، ويتغذون على دمائك، ويتنكرون لك في صورة أُناس عاديين[٢].

خامسًا: «المتنفس الأيديولوجي»:

يُعَدُّ المتنفس الأيديولوجي المتطلب الأخير للأيديولوجيا؛ حيث يؤدي وظيفة مهمة تتمثل في إفساح المجال أمام الأفراد للتعبير عن تذمرهم شريطة ألا يؤدي ذلك إلى تغيير الوضع القائم جذريًا. ويوضح جيجيك هذا المتطلب بقوله: «إن الطبقة الحاكمة دائمًا ما توفر مجالًا للطبقات الدنيا للتعبير عن غضبها، بشرط عدم المساس بالمصالح الاقتصادية القائمة، ولهذا فهي تتسامح مع صور معينة من "الحرب الثقافية"، وتنزع إلى توفير المزيد من الحريات الفكرية، وفتح الباب أمام النضال من أجل حقوق المرأة، وحرية الجنس، وتعدد الثقافات، بوصفها مداخل لإبقاء هذه الطبقات تحت السيطرة، وكوسائل للتهرب من مساعدة الفقراء. وهذا يعني أن الحرب الثقافية "حرب طبقية" في حالة إزاحة، وينطبق هذا على أولئك الذين يَدَّعون أننا نعيش في "مجتمعات ما بعد طبقية"»[٣].

---

(1) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 43.

(2) Ibid, PP. 44–45.

(3) Žižek: ***The Parallax View***, P. 360; Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P.31.

يُمثِّل هذا النوع من الإزاحة للصراع الطبقي إلى مجرد الاختلافات الثقافية صورة من صور التزييف الكامن في الأيديولوجيا الليبرالية ذاتها، ويبدو وكأنه نوعٌ من المساومة، وعلى حدّ تعبير جيجيك: «**متنفسٌ للتطابق والانسجام الأيديولوجي**»[١].

من ناحية أخرى فإن جيجيك لا يساير ماركس الذي ذهب إلى أن الأيديولوجيا تنحصر في مجرّد "الخداع" و"الوعي الزائف"، أو تقنيع الموقف الاقتصادي- الاجتماعي المُعْطَى. فليس من الملائم- كما يقول جيجيك- القول بأن الأيديولوجيا تقوم بغسيل مخ للطبقات الدنيا، لدرجة أن هذه الطبقات لا تستطيع تحديد مصالحها؛ على العكس من ذلك فإن هذه الطبقات هي التي تخدع نفسها بطريقة واعية، كما لو كانت قد ارتضت بما يحدث لها[٢].

من هنا تصبح "الثقافة" في ظل الأيديولوجيا الليبرالية اسمًا لجميع الأشياء التي نمارسها دون أن نكون مؤمنين بها في قرارة أنفسنا، ودون أن نأخذها على محمل الجد. ويمتدّ ذلك إلى جميع المجالات العامة والخاصة، حتى إلى الدين ذاته؛ حيث لم يَعُدْ الأفراد "يؤمنون على نحو حقيقي"؛ لكنهم ببساطة يؤدّون الطقوس الدينية، ويَتبَعون التقاليد كجزء من ثقافتهم واحترامهم "لأسلوب الحياة" الذي يسيطر عليه مجتمعهم[٣].

تمثل الثقافة الموضوع المسيطر لدى الليبراليين بتركيزهم على النظر إلى السياسة بوصفها وسيلة لمكافحة العنصرية، والتمييز، وإقرار التسامح، والتعددية الثقافية[٤]. وهنا ينتقل جيجيك إلى نقد الليبرالية، وينصبّ نقده على أساس ما يسميه "هربرت ماركوزه" «**فائض القمع**»[٥] Surplus-Repression. ويشير هذا التعبير إلى أنه **لكي تُسيطر الطبقة الحاكمة على الطبقات الأخرى، فمن الضروري أن تُشبع احتياجاتها الضرورية لها، وأن**

(**1**) Žižek: ***Looking Awry: An Introduction to Jacques Lacan***, P. 17.

(**2**) Žižek: ***The Parallax View***, P. 360.

(**3**) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 31.

(**4**) Žižek: ***The Parallax View***, PP. 360-361.

(**٥**) يقصد ماركوزه بهذا التعبير؛ القمع الذي تقتضيه المصلحة المستثمرة في التمسك بالمجتمع القائم، والتي تؤدي إلى تبرير الاستغلال والسيطرة المنظمين. ومن هنا تنزع السلطة إلى الاستفادة من "فائض القمع" في ترسيخ النظام القائم وإضفاء المشروعية عليه. فإذا كان "القمع" من شأنه أن يخلق نزاعات وضغوطًا على الأفراد، فإنه عادة ما يجري استخدام "فائض القمع" في تعزيز التكيف والخضوع (على سبيل المثال، الخوف من فقدان العمل أو المكانة، أو تهميشهم في المجتمع). (انظر، هربرت ماركوزه: **فلسفات النفي: دراسات في النظرية النقدية**، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، القاهرة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط. ١، ٢٠١٢، ص. ٢٥٢).

تجعلها تعتقد أن لديها ما تحتاجه من النواحي الثقافية والسياسية والاجتماعية. وهذا ما تشتغل عليه الأيديولوجيا الليبرالية، من حيث إن الحرية فيها تُمارَس في حدود معينة وإلا تعرض المخالفون إلى قمع شديد بطريقة غير مباشرة[١].

معنى هذا أن السلطة الحاكمة قد لا تمانع وقوع التغيير، بل بالعكس قد تدعو إليه. لكن ونظرًا لأن التغيير لا يتعدى حدود المظاهر الشكلية، فإن الأوضاع تظل كما هي عليه وتظل الأيديولوجيا الليبرالية مهيمنة. ومن هذا المنطلق، يمكن النظر إلى الأيديولوجيا- كما يقول جيجيك- بوصفها عاملًا "**للتسكين الخيالي**" (Imaginary Mitigating) لصدمة ما يجري على أرض الواقع[٢].

تأسيسًا على هذا، يمكن القول إن الأيديولوجيا ذات طابع مرن يكفل لها الاستمرار والبقاء وإعادة نسج خيوطها من جديد. ولذلك وكما يوضح جيجيك، فإن **قيام الرأسماليين بالأعمال الخيرية، والتبرعات، وإعادة توزيع بعض الثروات، وما إلى ذلك؛ لإشباع بعض الاحتياجات المادية للفئات الواسعة من الفقراء والمحتاجين، وتدعيم مستوى معين من الرفاهية، إن هذه الممارسات ليست محض إحساس من جانبهم بأن ذلك واجبٌ عليهم، وإنما لكي يَحولوا دون وقوع تغييرات جذرية للواقع، ولكي يُبقون على النظام الرأسمالي حيًّا- أو على الأقل لكي يتم غض النظر عن الأزمة الكامنة في بنيته.** ولذلك فإن هذا المتنفس يؤدي إلى حفظ التوازن الاجتماعي، دون وقوف الرأسمالية في طريق مسدود، أو الدخول في حالة من الاستياء العام والتي من شأنها أن تُهدد بإعادة توزيع كلي للثروة على نحو عادل[٣].

وهكذا، فإن الأيديولوجيا تعمل من خلال هذا المستلزم على منع وقوع أي تغيير على أرض الواقع، وبالتالي فهي تؤثر سلبًا في إدراك الأفراد لواقعهم، وذلك عن طريق بعض الإضافات والإصلاحات الخارجية في النظام القائم. ويوضح «**جاري أولسن**» (Gary Olson) و«**لين ورشام**» (Lynn Worsham) ذلك بقولهما: «في ظل الأيديولوجيا، يجد

---

(1) Žižek: ***The Universal Exception***, P. P. 162, 294.

(2) Žižek: ***The Puppet and the Dwarf: The Perverse Core of Christianity***, P. 124; Žižek: ***The Indivisible Remainder***, P. 111.

(3) Žižek: ***Violence***, P. 23.

الأفراد أنفسهم فاعلين ونشطين، لكن وجودهم الحقيقي يظل خاملًا وسلبيًا»[1]. وبمعنى آخر يقوم الأفراد بأفعال معينة لا تغير شيئًا، ولا تؤدي إلى أي إنجاز ملموس، وإنما لكي تَضمَن الأيديولوجيا المهيمنة من خلال ذلك عدم حصول أي تغيير حقيقي؛ الأمر الذي يجعلهم أمام نوع من الاستسلام والرضا بالأمر الواقع.

نستنتج من ذلك أن المتنفس الأيديولوجي يستهدف الحيلولة دون وقوع الثورة أو التغيير الجذري؛ لأن الأزمات المتكررة والنابعة من بنية الأيديولوجيا المهيمنة تؤدي في كثير من الأحيان إلى خلق فجوات يتفجَّر من خلالها احتجاجات الفقراء وسخط ونقمة الطبقات المقهورة.

والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن: إذا كانت الليبرالية هي الأساس الفكري النظري للرأسمالية، **فكيف وظَّف جيجيك نظريته في الأيديولوجيا لنقد الرأسمالية (أو الليبرالية في جناحها الاقتصادي)؟**

(1) Olson, Gary A. & Worsham, Lynn: "***Slavoj Žižek: Philosopher, Cultural Critic, and Cyber-Communist***", *JAC: A Journal of Composition Theory*, Vol. 21, No. 2 (Spring 2001), P. 253.

المحور الثالث: الليبرالية وحدود العنف الأيديولوجي

إن سمات الأيديولوجيا وأبعادها سالفة الذكر تجلَّت في تحليلات جيجيك للعنف الاجتماعي، ودور الليبرالية في تصاعد وتيرة هذا العنف، وتحليله للرأسمالية بوصفها نظامًا شموليًا، ونقده لمفهوم "التسامح" بوصفه مقولة أيديولوجية يتم استخدامه لتعزيز مشروعية الوضع الاقتصادي- الاجتماعي المُعْطَى، وكذلك دور الديمقراطية الأمريكية في شن الحروب، وغير ذلك من المسائل الأخرى.

أولًا: البنية الأيديولوجية للعنف:

(أ) أصول العنف في الرأسمالية:

إن أية معالجة فلسفية لمسألة العنف لا يمكن أن تكون بحثًا حقيقيًا من دون الوقوف على الجذور الأيديولوجية لتشكلاته عبر سياقه الثقافي، والسياسي، والاجتماعي. فكل عنف يقوم بالأساس على إطار من الاعتقاد النظري والفكري، وهو يبدأ من الفكرة والمعتقد قبل أن ينتقل إلى السلوك والممارسة، وخاصة إذا كان إفرازًا لواقع اجتماعي- اقتصادي، أو رد فعل على عنف أوليّ ناتج عنه.

وينطلق جيجيك في معالجته للعنف من التمييز بين صورتين أساسيتين: «**العنف الموضوعي**» (Objective Violence)، و«**العنف الذاتي**» (Subjective Violence). يشير العنف الموضوعي إلى ذلك الشكل من العنف المرتبط أساسًا ببنية النظام الأيديولوجي المهيمن، والذي ينطوي دائمًا على عملية من إعادة الإنتاج "الآلية" لأفراد مستبعدين، ومقهورين، ومهمشين. ويشير جيجيك من خلال هذا النوع من العنف إلى كافة صور الإكراه التي تتسبَّب فيها الأنظمة الرأسمالية، التي تُغذِّي علاقات السيطرة والخضوع والاستغلال القائمة، وتُعيد إنتاجها باستمرار.

أما العنف الذاتي فيشير إلى الاستخدام المتعمد للقوة لإلحاق الأذى أو الضرر بالآخرين، ويشمل ممارسات العنف التي تقوم بها القوى السياسية، والحركات الاجتماعية والدينية المتطرفة. ويمتدّ هذا النوع ليشمل كل الممارسات التي تقع بدءًا من العنف الجسدي المباشر (الجريمة، والإرهاب) إلى العنف الأيديولوجي (العنصرية، والتمييز الجنسي)، وانتهاءً بالقلاقل المدنية، والصراعات الدولية[1].

(**1**) Žižek: ***Violence***, P. P. 10, 14.

يُمثِّل العنف الموضوعي نوعًا من "**العنف المُنظَّم**" "Systemic Violence"، أو ما يدعوه جيجيك العنف الغَرَضي الشامل، في حين أن العنف الذاتي قد يكون عنفًا موجهًا ضد الظلم الاجتماعي باعتبار الأخير يُعَدُّ "عنفًا منظمًا". وفي الواقع إن العنف الذاتي يُمثِّل في كثير من الأحيان نوعًا من العنف المضاد (Counter-Violence) الذي يرتبط ظهوره- في رأي جيجيك- بوجود الرأسمالية أساسًا. وهنا يكشف جيجيك بأسلوب بالغ الوضوح، أنه **على الرغم من أن تركيز الخطاب الليبرالي ينصبّ على محاربة هذا النوع الأخير من العنف، فإن الليبراليين ذاتهم نسوا- أو بالأحرى تناسوا- أن أصول هذا العنف كامنة في بنية أيديولوجيتهم، وهو ما يُعَدُّ محاولة لتشتيت انتباهنا عن بؤرة الشر الحقيقية، وصرف الأنظار عن المأزق الكامن في الليبرالية ذاتها. وبهذا المعنى تصبح الرأسمالية شريكة في إنتاج الأشكال المختلفة من العنف؛ بل تصبح هي ذاتها مصدر العنف، ويتم ذلك عن طريق تحريف رؤيتنا لأصل العنف ذاته؛ كبداية للدفع بنا (كأفراد وجماعات) لممارسته**[1].

إن التحليل المتعمق للعنف الذاتي يؤكد في رأي جيجيك أنه لا يُوَلَّد من تلقاء ذاته، وإنما يصبح كذلك بفعل العنف الموضوعي النابع من منظومة العلاقات الرأسمالية[2]. وعلى هذا فإن عنف الرأسمالية هو المحرك لكل صور العنف الأخرى، في حين أن العنف الذي تمارسه الحركات الدينية، والجماعات العرقية والإثنية وغيرها يصبح كذلك- في رأيه- نتيجة للهيمنة والاستغلال الرأسمالي. ولذلك فمن الضروري دراسة العوامل البيئية، وكذا الظروف الاجتماعية والسياسية المختلفة، في ضوء الكل الأكبر الذي تشمله الرأسمالية أو الذي تتسبَّب فيه، والتي تُنتج هذه الظاهرة أو تَدفع إلى القيام بها.

تأسيسًا على هذا، فإن الاستغلال الناجم من البنى والمؤسّسات الرأسمالية، جنبًا إلى جنب مع ضعف الوعي السياسي، وحملات التحريض الديني التكفيرية ضد الآخر المختلف، تُشكل جميعها دوائر تنزع إلى ممارسة العنف. ومن هنا تكمن أصول العنف الاجتماعي (ممثلًا في النزاعات، والمذابح الدموية، والفتن الطائفية، وما إلى ذلك) في "العنف الغَرَضي"، والتي تُعَدُّ الرأسمالية أصلًا له.

على هذا النحو يذهب جيجيك إلى أنه **من الأهمية تفسير هذا النوع من العنف الذاتي في ضوء إطاره البنيوي الشامل المرتبط بظهور النظام الرأسمالي؛ أي في ضوء**

(**1**) Ibid, P. 10.

(**2**) Žižek: "***A Plea for Ethical Violence***", P. 140.

العنف الغَرَضي أو الموضوعي. فهذا الأخير يُعَدُّ عنفًا متفردًا في طبيعته، وأخطر بكثير من العنف الأيديولوجي للمجتمعات السابقة على الرأسمالية؛ حيث لم يَعُدْ يُعزى إلى أفراد بعينهم وإلى نواياهم الشريرة، بل أصبح عنفًا يكتسي الطابع الموضوعي الخالص، ويعمل بطريقة منظمة، وخفية إلى حد كبير[1].

وانطلاقًا من نظرة جيجيك للرأسمالية على أنها أصلٌ كل الشرور الاجتماعية، فإنه يرى أن عنفها البنيوي- وليس العنف الذاتي- هو المشكلة الأساسية التي تحتاج إلى مُساءَلة، وعلى حدّ تعبيره: «**إن عنف الرأسمالية هو المحرك للعنف الذاتي، وهو نفسه ينسحب شيئًا فشيئًا من المجال العام- ولكنه يَبقَى دائمًا على نحو غير مرئي- لكي يُفسح المجال لخلق فضاءات ودوائر جديدة للشر الاجتماعي بدءًا من العنف الذي تمارسه الحركات الاجتماعية والدينية إلى العنف العرقي، وهذا النوع الأخير من العنف يستفيد بصورة كلية من عنف الرأسمالية، بل هو أساسًا ناتج عَرَضي له**»[2].

(ب) الليبرالية والتعمية عن عنف الرأسمالية:

هناك حكاية معروفة يرويها جيجيك تدور بين ضابط ألماني والرسام الشهير "بيكاسو"، وهي تحمل دلالة سياسة بالغة العمق. تقول الحكاية: إن ضابطًا ألمانيًّا زار بيكاسو في أستوديو له في باريس خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. وفي الأستوديو شاهد الضابطُ لوحة لمدينة "غرنيكا" (Guernica) الإسبانية وقد قصفتها القوات الألمانية، وقد صُدِم الضابطُ عندما رأى ما فيها من فوضى حَداثية، فسأل بيكاسو: "**أأنت فعلت هذا؟**" فرد عليه بيكاسو: "**لا، بل أنتم الذين فعلتموه!**".

يوضح جيجيك من خلال هذه الحكاية موقفه من البنية الأيديولوجية للعنف، كما يقارب نزوع الليبرالية إلى التعمية عن عنف النظام الرأسمالي. فالفكرة ذاتها تُعيد طرح نفسها كل يوم عندما تقع حوادث شغب، وانتفاضات وثورات عنيفة، فنجد الكثير من الليبراليين يشيرون بأصابع الاتهام إلى اليساريين الذين لا يزالون يراهنون على التغيير الجذري: "**ألستم من فعل هذا؟ هل هذا ما أردتموه؟**" واليساري الحقيقي يجب أن يرد مثلما أجاب بيكاسو: "**بل أنتم الذين فعلتموه! فما ذلك إلا نتيجة حتمية لسياستكم الأيديولوجية!**"[3].

(**1**) Žižek: ***Violence***, PP. 12-13.

(**2**) Ibid, P. 27.

(**3**) Ibid, P. 11.

معنى هذا أن الموقف الأيديولوجي الكامن وراء الليبرالية يُعمينا عن الإدراك الصحيح لطبيعة وأصل العنف الاجتماعي، وعلى حدّ تعبير جيجيك: «بمعنى من المعاني، كشفت لنا حركات العنف الاجتماعي عن حقيقة عصرنا "ما بعد الأيديولوجي" المزعوم؛ حيث أظهرت لنا بطريقة واضحة القوة المادية للأيديولوجيا. **فالمشكلة، إذن، في أعمال الشغب والانتفاضات الاجتماعية الأخيرة لا تتمثل في عنفها ذاته، وإنما في حقيقة أنها ليست سوى رد فعل على عنف الرأسمالية، وتعبير عن الغضب في نفوس ضحاياها في صورة مُقنَّعة كاستعراض للقوة، وتأكيد على خصوصية هويتهم ووجودهم»**[1].

من هذا المنظور يذهب جيجيك إلى أن الانفجارات "اللاعقلانية" للعنف الثوري لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء "العنف المنظم" من جانب الرأسمالية. ولكن الليبرالية تعمل على صرف الأنظار عن الأشكال الأساسية لعنف الرأسمالية (وهو أكثر أشكال العنف قسوة ووحشية)، والتركيز على الأعراض المتمثلة في العنف الذاتي[2].

إن تجاهل العنف البنيوي في الرأسمالية أمر جد خطير، وهو تجاهل تشتغل عليه الليبرالية لإدامة النظام الرأسمالي، وجعله يتحرك في دائرة مغلقة. ولتبسيط هذه المسألة نقول: إن النظام الرأسمالي يخلق الأزمات، ثم يحاول أن يقدم لها الحلول (فهو يتسبَّب في انتشار المرض، وتلوث البيئة، ثُم يحاول أن يوفر العلاج والحل؛ لا لشيء سوى لإدامة دورته الاستهلاكية!). ولهذا يذهب جيجيك إلى أن **جميع الحملات المتوهجة لأفعال البِرّ والإحسان تُمثِّل قناعًا يُخفي الوجه العنيف للاستغلال البشع للعولمة الرأسمالية**. هكذا يعلنها جيجيك بأسلوب بالغ الوضوح قائلًا:

«إن الانخراط لمكافحة العنف الذاتي، وتجاهل العنف المُؤسَّسي للرأسمالية، يخدم في الأساس كقوة بالغة الأهمية لإدامة هذا النوع الأخير من العنف، الذي يتسبَّب في خلق جملة الأحوال والظروف الأيديولوجية لاندلاع العنف الاجتماعي. ولهذا، لا يجب أن ننخدع من قيام بعض الرأسماليين والمستثمرين من المهتمين بالعمل الخيري، بالتبرع بالملايين لمحاربة مرض الإيدز، أو لتدعيم ثقافة التسامح مثلًا؛ لأن تلك الممارسات تُخفي في حقيقتها قناعًا زائفًا بسبب التشوهات المُتسبِّبة فيها الرأسمالية. فهؤلاء هم أنفسهم من تسبَّبوا في تدمير حياة الآلاف؛ بل الملايين من خلال المضاربات المالية؛ وهو الأمر الذي

---

(1) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 60.

(2) Žižek: ***Violence***, PP. 206–207.

من شأنه أن يساعد على ظهور المرض، وزيادة التعصب، اللذَينِ يعملون على محاربتهما! والأمر نفسه ينطبق على ما نسمعه من أخبار سارة في وسائل الإعلام من قيام الحكومة بإسقاط الديون عن بعض الفئات المتعثرة، أو ما نسمعه عن قيام حملات إنسانية كبيرة للقضاء على هذا الوباء أو ذاك. ومن هنا يتعيَّن علينا أن نقف على الجذر الأصلي للعنف الذي يؤدى إلى وقوع هذه الأمراض والشرور (جذور المرض، والتعصب، والفقر)، وهو الجذر الذي يكمن أساسًا في البنى والمؤسّسات الرأسمالية»[1].

وفي هذا الإطار يذهب جيجيك إلى أن **الإرهاب الديني ليس هو وحده المسئول عن تصاعد وتيرة العنف؛ فالليبرالية تشترك معه في ذلك، وإلى الحد الذي تكون فيه هي الأصل في ذلك العنف**. ولكن التضمين الأيديولوجي ينصبّ على أساس فكرة التحويل؛ أي تحويل جذر المشكلة إلى شيء آخر يُمثِّل في حد ذاته "عرضًا"، وهو عَرض من الأعراض التي ترتبط بالمجال الاجتماعي- الاقتصادي لليبرالية[2]. ويستشهد جيجيك **بأفغانستان والتي كانت- قبل أربعين عامًا فقط- بلدًا ذا تقليد علماني يحكمه حزب شيوعي وصل إلى السلطة دون دعم من الاتحاد السوفييتي. فأين ذهب هذا التقليد العلماني؟ وما الذي جعل أفغانستان أسوأ مثال للدول الإسلامية الأكثر تطرفًا؟**[3].

لا شك أن صعود العنف والإرهاب الديني يرجع في جزء منه إلى التواطؤ الأمريكي السافر مع الحركات الدينية المتطرفة، ولا شك أن للرأسمالية الأمريكية دورًا في ذلك؛ فنشوء هذا العنف يُمثِّل- فيما يرى جيجيك- انعكاسًا زائفًا على شعور الكثير من الأفراد والجماعات في العالم الثالث بالفشل والإذلال من قبل الغرب من جانب، وتوحش الرأسمالية من جانب آخر، واحتلال الكِيان الصَهيوني للأراضي الفلسطينية من جانب ثالث، وهو الاحتلال المدعوم من الغرب الرأسمالي، وأمريكا بصفة خاصة. ووفق ما يرى جيجيك، **فإن أفغانستان لم تصبح دولة أصولية إلا بعد أن زُجَّ بها في (لعبة الأمم) في السياسة المعولمة؛ أي إن وجودها بالشكل الحالي كان نتيجة لصراع القوى الأجنبية**[4].

(**1**) Ibid, PP. 36-37.

(**2**) Žižek: ***The Parallax View***, P. 19.

(**3**) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 73; Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 73.

(**4**) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 55.

من هنا يذهب جيجيك إلى أن العولمة التي أفرزتها الرأسمالية، خاصة في نزوع الأحادي المتطرف، تعمل كتبرير للقوة والعنف غير المُقيَّدين[١]. كما أن العولمة لا تَرمِز إلى انفتاح الثقافات والحوار فيما بينها، ولكنها ترمز إلى التسطيح الذاتي الذي يفصل الداخل عن الخارج[٢].

معنى هذا أن العنف الاجتماعي لا يمكن تفسيره بمعزل عن نظام العلاقات الرأسمالية. ولذلك يُحلِّل جيجيك طبيعة الصراع الأيديولوجي القائم بين الأصوليات الدينية من جانب والرأسمالية من جانب آخر عن طريق مفهوم «نيتشه» للعدمية. تحاول الرأسمالية (وهي المرادفة "**للعدمية السلبية**" "Passive Nihilism") تقديم المُنتَج من خلال إنتاج العديد من السلع، ومن ثَمَّ فإنها تستند إلى نمط الحياة الاستهلاكي، ومثالها المفضل هو الإنسان المنغمس في الملذات اليومية والمتع الزائفة، في حين أن الأصوليات الدينية (وهي المرادفة "**للعدمية الإيجابية**" "Active Nihilism") تقوم على أساس فكرة الكفاح من أجل إقرار عقيدة دينية معينة، ولذلك نجد المتطرفين الدينيين على استعداد للمخاطرة بكل شيء، والمشاركة في النضال لدرجة التضحية بالذات[٣].

نستنتج من ذلك أن العنف المُتجسِّد في نظام البنى الرأسمالية هو أصل كل الشرور وصور العنف الأخرى. ويؤكد «**أدريان جونستون**» (Adrian Johnston) أن العنف الديني والاجتماعي في نظر جيجيك لا يمكن تفسيره إلا في ضوء العنف المنظم من جانب الرأسمالية، وهو متأثر في ذلك بهيجل (١٧٧٠-١٨٣١) الذي رأى أن المظاهر المدمرة للعنف والمتمثلة في اللغة، والثقافة، والاجتماع، وغيرها لا تنفصل في جانب كبير منها عن عنف النظام الأيديولوجي المهيمن[٤].

كذلك فإن رؤية جيجيك التي مفادها أن الرأسمالية من شأنها أن تُوَلِّد المزيد من العنف، تتقاطع مع ذهب إليه «جورج سُورِيلْ» (Georges Sorel) (١٨٤٧-١٩٢٢)، من أن التطور المتزايد للرأسمالية يُسبِّب ارتفاعًا في وتيرة العنف؛ الأمر الذي يَفرِض على الأفراد

---

(1) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 31.

(2) Žižek, Slavoj: ***The Courage of Hopelessness: Chronicles of a Year of Acting Dangerously***, London: Allen Lane, 2017, P. 5.

(3) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 40.

(4) Johnston, Adrian: ***Žižek's Ontology: A Transcendental Materialist Theory of Subjectivity***, Evanston: Northwestern Univ. Press, 2008, P. P. 132, 192.

الذين يقودون الثورة الاشتراكية أن يدافعوا عنها بوسائل عنيفة في أغلب الأحيان، وذلك في مواجهة الغرائز التي تَدفع الإنسانية نحو أدنى مستويات الحضارة[١].كما أن جيجيك في تمييزه بين هاتين الصورتين للعنف متأثّر بـ«فالتر بنيامين» (١٨٩٢-١٩٤٠)، الذي ذهب إلى أن أصول العنف كامنة في بنية الأنظمة والتشريعات القانونية والسياسية والاقتصادية[٢].

وإذا كان جيجيك ينظر إلى الرأسمالية على أنها نظامٌ شمولي، فإنه في ذلك يسير على الخط الذي انتهجه «هربرت ماركوزه» (١٨٩٨-١٩٧٩)، الذي ذهب إلى أن المجتمعات الصناعية المعاصرة طغت عليها السلبية، والاستغلال، والسيطرة، رغم أنها في الظاهر مجتمعات يسودها السلام الاجتماعي. وهو الأمر الذي دفعه إلى القول بأن هذه المجتمعات صارت أصولية نظرًا لهيمنة السوق الحر، وإلغاء الحرية والطابع الفردي للإنسان عن طريق تسليع الأعمال الضرورية، وبحيث أصبحنا في النهاية أمام نوع من التنميط للبشر، ونظام موضوعي تحكمه قوانين السوق، ويخرج عن سيطرة الإنسان، بل ويجد الإنسان نفسه مقيدًا بجهاز الإنتاج[٣].

ومن ناحية أخرى فإن مقولة جيجيك المتمثلة في أن التركيز على العنف الذاتي من شأنه أن يحجب الصورة الأساسية للعنف الكامن في بنية النظام الأيديولوجي، تُدلِّل على مدى اتفاقه مع «حنَّه أرندت» من جانب، واختلافه معها من جانب آخر. فقد ذهبت أرندت إلى أن أصول العنف كامنة في «الشر الجذري» "Radical Evil" الذي صاحب ظهور الأنظمة الشمولية. وإنَّ السمة المميزة لهذا النوع من العنف هو أنه يستهدف تحقيق الهيمنة الكلية، من خلال تكوين جيل من النخبة يكون تابعًا أيديولوجيًا لهذا النوع من الأنظمة، وكذلك من خلال الإرهاب في معسكرات الاعتقال الشمولية[٤].

---

(1) Sorel, Georges: ***Reflections on Violence***, trans.: Hulme, Thomas E., ed.: Jennings, Jeremy, Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1999, P. 288.

(2) Benjamin, Walter: "***Critique of Violence***", in: idem, *One-Way Street and Other Writings*, trans.: Jephcott, Edmund & Shorter, Kingsley, London: Verso, 1979, PP.132ff.

(٣) ماركوزه، هربرت: **الإنسان ذو البعد الواحد**، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت: دار الآداب، ط. ٣، ١٩٨٨، ص ص. ٣٧-٣٨، ١٨١.

(4) Arendt, Hannah: ***The Origins of Totalitarianism***, New York: Harcourt Inc. 1973, P . 438.

أما جيجيك فرغم اتفاقه مع أرندت في هذا الجانب، فإنه يوسع دائرة هذا النوع من العنف ليشمل الآليات والبنى التي تعمل الرأسمالية من خلالها، والتي تُحوِّل الأفراد إلى آلات تدور في فلك صنمية السلع ورأس المال. ومن ناحية أخرى، فإن إيمان جيجيك بضرورة الثورة التي تلجأ إلى أدوات العنف يجعله يقف على طرفي نقيض مع أرندت التي رأت أن العنف لم يُكن يُنظر إليه بشكل عام على أنه عامل ضروري في الثورة حتى وقت قريب نسبيًا في القرن العشرين(١).

لكن إذا كان تحليل جيجيك للعنف يحتوي على جانب من الحقيقة، فإنه في بعض جوانبه يُمثِّل تفسيرًا مغلوطًا بشكلٍ جوهري. فممارسات العنف الديني ناتجة في جانب كبير منها من القراءات المغلوطة، والتأويلات المُبتَسَرة للنصوص الدينية، بقدر ما هي نِتاج لتجاوزات الرأسمالية وتوسعاتها الإمبريالية خاصة من جانب العولمة الرأسمالية؛ لكنها أساسًا نِتاجٌ لتشبُّث الحركات الأصولية بجملة من المفاهيم الدينية التي سادت لفترة طويلة– للأسف– في الثقافة الإسلامية، مثل "الجهاد" في شكله التاريخي الأول.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الحدود بين هذين النوعين من العنف مختلطة في بعض الأحيان، كما أن قوله بأن العنف الثوري نوع من ردّ الفعل على بنية العنف الكامنة في النظام الأيديولوجي الليبرالي، ليس صحيحًا بالضرورة. والأهم من ذلك– كما يرى «**هاري فان دير ليندن**» (Harry van der Linden)– أن رؤية جيجيك تؤدي إلى تبرير مفرط وواسع النطاق للعنف بوصفه نوعًا من العنف المضاد في كل الأحوال، وذلك استنادًا إلى أخلاقيات الدفاع عن النفس، في حين أن الأقرب للصواب أنه لا يمكن تبريره إلا لمواجهة العنف الذي تمارسه الدولة(٢).

بالنسبة لهذا التفسير الذي يقدمه جيجيك، فإن وجه القصور الكامن فيه يتمثل في الربط الحصري بين الرأسمالية من جانب، والعنف الديني والاجتماعي من جانب آخر، رغم وجود صلات بين الاثنين. فالأخير قد يكون أحد مُنتجات النظام الرأسمالي، لكنه ليس نِتاجًا ضروريًّا له في كل الأحيان. وفي واقع الأمر إن جيجيك في إرجاعه هذا النوع الأخير من العنف إلى الرأسمالية وحدها، نجده يستخدم الأيديولوجيا الليبرالية كفزاعة، كما لو أن هناك

---

(1) Finlay, Christopher J.: "***Violence and Revolutionary Subjectivity: From Marx to Žižek***", *European Journal of Political Theory*, Vol. 5, No. 4, 2006, P. 373.

(2) Linden, Harry van der: "***On the Violence of Systemic Violence: A Critique of Slavoj Žižek***", *Radical Philosophy Review*, Vol. 15, No. 1, 2012, P. 33.

مؤامرة كونية تقودها الرأسمالية التي تُمثِّل– وفقًا له– بؤرة الشر الوحيدة في العالم. فأصول العنف والأزمات الأخرى يعزوها جيجيك إلى "الرأسمالية" التي تنزع في جوهرها إلى تحقيق المزيد من الثروات والمكاسب المادية، وبحيث تكون الرأسمالية– في نهاية المطاف– هي (الشيطان) الأعظم في نظره!

إن الحركات الدينية المتطرفة، إذ تُسمَّى بالسلفية الجهادية، فإنها تعتمد على الفعل والممارسة، وليس مجرّد العقيدة الفكرية فقط، والمسافة عندها بين الفكر وبين الفعل مسافة قصيرة جدًا؛ فمن السهل بالنسبة لها أن تنتقل– فقط بآلية سيكولوجية بسيطة جدًا– من حيز التفكير المتطرف إلى حيز التنفيذ المدمر.

أما بحسب جيجيك، فإن العنف الذي تمارسه هذه الحركات هو رد فعل على عنف الرأسمالية؛ حيث يزعم أنها توجه عنفها ضد القيم البرجوازية والمفاهيم الليبرالية كالديمقراطية والحرية والمساواة، وأن ممارساتها لها ما يبررها– نسبيًا– لأنها تُمثِّل مقاومة للاستغلال والاضطهاد الاجتماعي اللذَينِ أفرزتهما العولمة الرأسمالية عبر أعوانها الدوليين.

لكن أليست هذه الرؤية ضيقة الأفق، ويغيب عنها الدقة في التحليل، والموضوعية عند المعالجة، خاصة الزعم بأن عنف هذه الحركات– ومن بينه الإرهاب الذي تمارسه حركة "داعش"– لا علاقة له بفهم النصوص الدينية، أو التقاليد الإسلامية، وإنما هو ظاهرة حديثة جاءت كردّة زائفة ضدّ الاستغلال والهيمنة الرأسمالية؟ والأهم من ذلك أنه يخلط في تحليلاته بين المجتمعات الرأسمالية المعاصرة التي قد تكون شريكة في ظهور هذه الحركات، وبين الرأسمالية كنظام إنتاج اقتصادي يقوم على الملكية الفردية والتبادل الحر، رغم أنه ينطوي على الاستغلال كما وصفه ماركس.

يتضح لنا إذن أن **تحليلات جيجيك في هذا الصدد غيُر سديدة؛ فنظرته للعنف الاجتماعي ليس كمرض، وإنما كنِتاج لعنف الرأسمالية، وزعمه بأن العنف الديني هو نتيجة لعنف العولمة الرأسمالية، إن نظرته هذه تُمثِّل مغالطة، بل وتفسيرًا ميكانيكيًا يفتقر إلى أدنى مستويات الإقناع؛ لأنها تفتقر إلى الموضوعية، كما تفتقر إلى المنهجية الدقيقة، ولا تضع في الاعتبار الظروف التاريخية والجيوسياسية لهذا النوع من العنف الديني، وكأن المشاريع الفكرية للحركات الدينية لم تكن لتظهر إلا في التربة الرأسمالية العالمية. وهي علاوة على ذلك طريقة غير منطقية لتفسير إخفاقات الرأسمالية والآثار السلبية والوخيمة للعولمة الأمريكية.**

ثانيًا: الليبرالية الجديدة ونهاية الأيديولوجيا:

(أ) «الليبرالية الجديدة» بوصفها شكلًا من أشكال الأيديولوجيا:

تتحرك الليبرالية في قطبين مختلفي الخصائص: قطب إيجابي، وآخر سلبي. يتمثل القطب الإيجابي في إظهار مزاياها، ويظهر القطب السلبي في الدعاية المنظمة ضد خصومها من الأيديولوجيات الأخرى، وإظهارها على أنها خطرة ومدمرة بالنسبة للفرد والمجتمع. كذلك فإنها تحاول باستمرار "تقنيع" التناقضات الاجتماعية التي تحويها في طيَّاتها، وهنا تُظهِر نفسها في كل مرة وكأنها النموذج الوحيد للمجتمع المثالي.

لكن جيجيك يُعلن عن مدى الإفلاس الفكري الذي أصاب الليبرالية؛ حيث تُقدِّم نفسها كمُنتَج فكري خالٍ من كل العيوب المُتضمَّنة في الأيديولوجيات الأخرى. وفي رأيه إن التلاعب الأيديولوجي هنا لا يتم عن طريق الخداع المباشر، بل عن طريق عدم الإفصاح عن عيوبها الجوهرية من جانب، وإظهار الأخطاء والجوانب السلبية في الأيديولوجيات المغايرة لها من جانب آخر[١].

وانطلاقًا من هذين القطبين اللذَينِ تتحرك فيهما الليبرالية، نجدها تعمل على تقديم نفسها في صورة غير أيديولوجية، وتستند في ذلك إلى نوع من أخلاقيات "المتعة" الجديدة (وليس مجرّد "اللذة")، التي تسعى من خلالها إلى التحكم في طريقة إدراك الأفراد لواقعهم. فإذا كانت اللذة معتدلة ومضبوطة، ويمكن إشباعها، فإن المتعة تُمثِّل فائضًا مُميتًا أكثر منها لذة، وليس هناك حدٌ يمكن أن تقف عنده. وبهذا المعنى، نحن نعيش في "عالم ما بعد أيديولوجي" مزعوم؛ حيث إن ما تتحكم فينا هي دعوة "مشبوهة" من المتعة المفرطة[٢].

من هنا تُقدِّم الليبرالية نفسها على أنها «أيديولوجيا دون أساس أيديولوجي!»– إذا جاز التعبير– وكما يقول جيجيك: «أيديولوجيا مجرّدة من الخصائص الضارة للأيديولوجيا! مثلما نجد في السوق الرأسمالية اليوم مجموعة من المنتجات المجرّدة من خصائصها الضارة: بن منزوع الكافيين، وبيرة دون كحول، وقِشْدَة دون دهون، وجنس دون ممارسة الجنس (الجنس الافتراضي)،...إلخ»[٣].

---

(1) Žižek: ***Less Than Nothing***, P. 766.

(2) Žižek: ***The Parallax View***, P. 188.

(3) Žižek: ***The Universal Exception***, P. 269; Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 10.

وإذ تحاول الليبرالية أن تخلق واقعًا محددًا تهيمن عليه هذه المتع التي لا تؤثر في الصحة، فإنها بذلك تفتح الباب لانغماس الأفراد في هذه المتع الزائفة؛ فهي تُبيح ممارسة الجنس لكن بضوابطه الصحية. وإذا كان البن منزوع الكافيين في حقيقته خاليًا من اللذة، فإن الواقع الذي تهيمن عليه الرأسمالية والذي تُقدِّمه الليبرالية هو واقع مُمتع لكنه خالٍ من نواته الأصلية، وهكذا.

من هذا المنطلق يوضح جيجيك أن الليبرالية تُحوِّل الواقع الحقيقي إلى "واقع افتراضي" "Virtual Reality"؛ وبحيث تُقدِّمه لنا ككيان مجرّد من جوهره. وفي محاولتها للتحكم في طريقة إدراك الأفراد لواقعهم، تنزع إلى إغراقهم في سوق من هذه المتع، وذلك عن طريق استبدالها لأخلاق الصحة الجديدة بالمخاطر والمحظورات القديمة، وتجاوز أخلاق المنع والحظر التقليدية وفتح الباب أمام هذه المتع الجديدة، حيث كل شيء مباح ما دام أنه يمارس بشكل صحي. يقول جيجيك موضحًا ذلك:

«تنزع الليبرالية إلى إعادة تعريف السياسة بوصفها فن الإدارة والخبرة؛ وهنا نكون بإزاء سياسة دون سياسة(...) وفي كل مرة يقوم "الواقع الافتراضي" بتكرار هذه العملية من أجل أن يُقدم لنا مُنتَجًا مجردًا من جوهره؛ وبحيث نحصل في النهاية على الواقع ذاته مجردًا من جوهره، أو من نواته القوية. فكما هو الحال مع البن منزوع الكافيين الذي يفوح منه رائحة وطعم القهوة دون أن يكون بنًا حقيقيًا، يعيش الأفراد في ظل الليبرالية تحت واقع مصطنع»[١].

إن نقد جيجيك لليبرالية في هذا الجانب ينصبّ على قيامها على هذا المفهوم للمتع الجديدة؛ حيث إن هذه المتع المطلقة العنان مجرّد وهم، بمعنى أنه لا يمكن إشباعها، وأن منزلتها متفاوتة تمامًا، كما أن وجودها ليس سوى نقطة سلبية فيما يتعلق باللذة المعيشة بالفعل[٢]. ومن ثَمَّ يتعيَّن النظر إلى "الواقعي" على أنه جزء من واقع افتراضي، وليس على أنه جزء من الواقع الحقيقي[٣]. وبعبارة أخرى، يُمثِّل "الواقعي" النواة الصلبة الافتراضية التي تتذبذب حولها الدلالات الرمزية. وهذه الدلالات الرمزية مشروطة وغير مستقرة دائمًا بحكم طبيعتها[٤].

---

(1) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 11.

(2) Žižek: ***The Parallax View***, P. 188.

(3) Žižek, and Daly: ***Conversations with Žižek***, P. 95.

(4) Žižek: ***Living in the End Times***, P. 107.

وإذا كانت الليبرالية تقوم على أساس مفهوم "التحييد" "Neutralization"، في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ومؤداها أن هناك العديد من المواقف والمعايير في الحياة ليست ذات طابع أيديولوجي؛ وإنما هي محايدة، وما يخرج عن هذا يُعَدُّ أيديولوجيا مثلما يظهر- على سبيل المثال- في أشكال الحماس الديني المتطرف، أو الذوبان الكامل في بَوتَقة توجه سياسي معين، إذا كانت الليبرالية تقوم على هذه النزعة الحيادية الكلية، فإن جيجيك ينتقد هذه النزعة التي تعمل على تحييد دور الدولة للوصول إلى أساس مقبول، ويرى أنها تُجسِّد في حد ذاتها أيديولوجيا شمولية في أنقى صورها(١).

يبدو مفهوم الحيادية- بالنسبة لجيجيك وغيره من نقاد الليبرالية- مجرّد زيف؛ وفي رأيه أن "السياسي" في كل مجتمع بشري يُعَدُّ المبدأ التأسيسي الذي يُحرك جميع الأطراف داخله وخارجه؛ بحيث إن كل محاولة للتحييد لأي مجال من مجالات المجتمع، والنظر إليه على أنه "غير سياسي"، إنما هو توجه سياسي بامتياز(٢). وقد أكد جيجيك على ذلك أيضًا بقوله: «إن أي موقف معين يقدم نفسه على أنه "حيادي- كلي" (Neutral-Universal) إنما يقوم بطريقة أو بأخرى بإضفاء نوع من التفوق والامتياز على عقيدة أو أيديولوجيا بعينها. ومثل هذا الموقف هو الركيزة الأساسية التي تقوم عليها الليبرالية في عصر ما بعد الحداثة والمناهضة- في ظاهرها- للأصولية... وهنا تظهر حقوق الإنسان في صيغة كلية زائفة تعمل على تقنيع السياسات الغربية للإمبريالية والهيمنة، والتدخلات العسكرية، والاستعمار الجديد، وإضفاء المشروعية عليها»(٣).

(ب) "التسامح" بوصفه مقولة أيديولوجية:

يذهب جيجيك إلى أن مفهوم "التسامح"، بالصورة الليبرالية التي يتم تقديمه من خلالها، يُعَدُّ مقولة أيديولوجية، وليس مفهومًا كليًا؛ لأنه يُركِّز على محاربة "العنف الذاتي"، ويتجاهل "العنف الموضوعي" المتأصل في بنية النظام الرأسمالي(٤). ويتساءل جيجيك: **لماذا يتم النظر إلى الكثير من المشكلات على أنها ناتجة عن التعصب، وليس عن عدم المساواة، أو الاستغلال، والظلم؟** ويجيب عن ذلك بقوله:

(**1**) Žižek: ***Less Than Nothing***, P. 311; Žižek: ***Violence***, P. 36.

(**2**) Žižek: ***The Parallax View***, P. 338.

(**3**) Žižek: ***Violence***, PP. 148-149.

(**4**) Ibid, P. 144.

«إن تقديم التسامح– وليس التحرر، أو النضال، أو حتى الكفاح المسلح– على أنه الحل المقترح، أو الوصفة الجاهزة لمواجهة التعصب، ينبع أساسًا من اشتغال الليبرالية بالتعددية الثقافية، ويتم ذلك عن طريق "**إضفاء الطابع الثقافي على السياسة**" "Culturalization of Politics". وفي هذه العملية يتم تحييد الخلافات السياسية– والتي تنتج أصلًا عن الاستغلال، وعدم المساواة– والنظر إليها على أنها اختلافات "ثقافية وحضارية"؛ أيّ اختلافات في "طريقة الحياة" التي تعيش المجتمعات وفقًا لها، وهي اختلافات لا يمكن تجاوزها من ناحية، كما لا يمكن سوى التسامح معها من ناحية أخرى»[1].

يتكشّف الغموض الذي يصطبغ به الاستخدام الأيديولوجي لمقولة التسامح إذا توغلنا إلى جوهرها؛ حيث يتم تقديمها كمقابل للتعصب تجاه الأجانب، والنساء، والمَثَليين. وهنا يكمن بيت القصيد: فلا أحد يقف ضد التسامح في حد ذاته (أو هكذا ينبغي أن يكون)، ولكن ما ينبغي مساءلته هو التفسير الآلي الذي يتم تقديمه للعنصرية– بإطلاق– كمشكلة عدم التسامح[2]. كما أن الحل الذي يتم تقديمه لإحلال "الطابع الثقافي على السياسة" من شأنه أن يكون واجهة للتعمية عن أصول العنف الاجتماعي، في حين أن الترويج للتسامح الذي ينطلق من التأكيد على الاختلاف الثقافي، وخصوصية الهوية، يمثل الآلية التي تناسب الرأسمالية، وتساعدها بصفة مستمرة على إعادة خلق نفسها من جديد، وبحيث تصبح الاختلافات الثقافية في النهاية المحرك لاقتصاد السوق الحر.

إن النتيجة الحتمية لهذا النوع من التسامح الليبرالي هي تقسيم الأفراد والمجتمعات وفقًا لثقافتهم ونظمها السياسية من حيث مدى انفتاحها على الآخر، وكما يقول جيجيك: «من أجل أن تنجح الليبرالية، تنزع إلى تقسيم دول العالم أجمع إلى عوالم ثلاثة: عالمين أول وثاني (الدول الرأسمالية)، وعالم ثالث (الدول الشيوعية والاشتراكية). العالم الأول تهيمن عليه الولايات المتحدة بوصفها القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية الكبرى، والعالم الثاني تُمثِّله أوروبا الشرقية (بلدان ما بعد الحقبة الشيوعية) وأجزاء من آسيا وأمريكا اللاتينية لأنها المناطق الأكثر إنتاجًا وتصنيعًا، ويشمل العالم الثالث بقية دول العالم (العالم النامي). وعلى هذا النحو ينتج عن الرأسمالية العالمية ظهور شكل جديد من الأنظمة الأوليجاركية (حكم

---

(1) Žižek: ***Living in the End Times***, P. 5.

(2) Ibid, PP. 4–5.

القلة الغنية)، وهذا الشكل يتخفّى وراء ستار "التنوُّع الثقافي"، لكن "المساواة" و"العالمية" فيه تختفيان بشكل متزايد بوصفهما من المبادئ السياسية الحقيقية»[١].

إن هذا التقسيم بهذا الشكل يؤدي للتعصب المرتكز على أساس تمجيد الذات القومية، كما يضعنا في عملية عكسية تبدأ من "**إلباس السياسة ثوبًا ثقافيًا**"، وتنتهي عند "**تسييس الثقافات**" "**Politicization of Cultures**"؛ أي إلباس الثقافة ذاتها ثوب الصراعات السياسية. وهنا يظهر أن إدارة السياسة من مداخل ثقافية يُمثِّل إخفاقًا لدولة الرفاهية من ناحية، كما يُمثِّل بديلًا ليبراليًا جديدًا، لكنه زائف، للمشروعات الاشتراكية من ناحية أخرى. ومن ثَمَّ فإن التسامح في صورته الليبرالية يُمثِّل في نهاية المطاف البديل المصطنع، والحل الانهزامي لرأسمالية عصر ما بعد الحداثة[٢].

ويشير جيجيك إلى أن «صموئيل هنتنجتون» (Samuel Huntington) (١٩٢٧–٢٠٠٨) هو من اقترح صياغة "تسييس الثقافات"، وذلك بإرجاعه الصراعات السياسية إلى اختلاف الثقافات؛ الأمر الذي قاده إلى الاعتقاد بأن «الستار الحديدي للأيديولوجيا» في عصر السرديات الاقتصادية الكبرى حل محله «ستار الثقافة المرن» بعد انتهاء الحرب الباردة. ومن هنا كانت الطريقة الوحيدة لتحرير الأفراد من التعصب تتمثل– وفقًا لهنتنجتون– في تحريرهم من الثقافات المتعصبة ذاتها[٣].

لكن جيجيك يرفض النظر إلى ثقافة معينة على أنها صاحبة الامتياز، وفي رأيه أن استعباد بعض الثقافات ووصفها بأنها بربرية وغير متسامحة ليس سوى نوعًا من تأكيد التفوق لثقافة المجتمعات الغربية الحديثة. ويرتبط بذلك أمر آخر، ويتمثل في تجاهل الليبرالية للظلم والاستغلال في بعض الثقافات تحت مظلة "احترام" ثقافة الآخرين؛ وهنا نجد أن استحضار حرية الاختيار غالبًا ما يتم بطريقة منحرفة: حيث تواجهنا الأيديولوجيا الليبرالية بضرورة احترام طريقة الشعوب في الحياة حتى لو كانت تضحي بحياة المرأة الأرملة بعد وفاة زوجها[٤].

ليست الثقافة سوى أحد مظاهر المجتمع، وبالمثل فإذا كان الاختلاف الثقافي قد يؤدي إلى صراع من نوع ما، إلا أنه ليس من الصحيح القول بأنه يخترق المجال الاجتماعي

(**1**) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 18.

(**2**) Žižek: ***Violence***, P. 140.

(**3**) Ibid, PP. 140–142.

(**4**) Ibid, P. 148.

والاقتصادي بأكمله، ليكون المصدر الوحيد لكل الصراعات السياسية، وإنما منشأ ذلك هو التوظيف الأيديولوجي "للاختلاف الثقافي" على أنه مكون من مكونات التناقضات في العملية الاجتماعية، والمحرك للتناقضات الطبقية والصراعات السياسية الأخرى[١].

من هذا المنطلق يذهب جيجيك إلى أن رؤية هنتنجتون المتشائمة عن صدام الحضارات، والقائمة على أساس أن صراع الثقافات سيكون الصراع الرئيس في القرن الواحد والعشرين، خاصة بعد أفول الصراعات الأيديولوجية الكبرى- إن رؤيته هذه ليست مناقضة لأفق «فرانسيس فوكوياما» وصياغته الهيجلية الزائفة عن «نهاية التاريخ». وفي رأي جيجيك إن الصياغتين تكمل إحداهما الأخرى؛ لأن صدام الحضارات يظل في نهاية المطاف سياسة أيديولوجية في نهاية التاريخ[٢].

هذا بالنسبة لمفهوم التسامح بوصفه مقولة أيديولوجية تُخفي طبيعة الاستغلال الرأسمالي. فماذا عن نقد جيجيك لليبرالية في جناحها السياسي الذي تُمثِّله الديمقراطية الليبرالية؟

(ج) "الديمقراطية الليبرالية" في مقابل "الأصولية الدينية":

يُمثِّل النظام الرأسمالي الحليف الطبيعي للديمقراطية الليبرالية. ومنذ سقوط الشيوعية بانهيار جدار برلين، بَدا هذا الحدث وكأنه إعلانٌ عن بداية نظام جديد ممثلًا في الديمقراطية الليبرالية بوصفها النظام السياسي الأمثل. وعندما طرح فوكوياما صياغته لنهاية التاريخ، تم الترويج لفكرة أن الديمقراطية الليبرالية انتصرت من حيث المبدأ، وأن صعود المجتمع الليبرالي العالمي صار قاب قوسين أو أدنى؛ الأمر الذي يضعنا في نهاية التطور الأيديولوجي للبشرية[٣].

إن هذا الإعلان الجديد عن ميلاد الديمقراطية الليبرالية، والدخول في أفق العولمة بمفهومها الرأسمالي بوصفها النظام الذي يُجسِّد السعادة للبشرية، يُمثِّل في حد ذاته أيديولوجيا محددة؛ إذ إن الديمقراطية الليبرالية لا يمكن فهمها- من الناحية التاريخية على الأقل- كما لا يمكن الوقوف على بنيتها الرأسمالية إلا على أساس أنها تُقدِّم نفسها بوصفها البديل الأمثل لكل الأنظمة السياسية الأخرى.

(**1**) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, PP. 32–33.

(**2**) Žižek: ***Violence***, P. 141.

(**3**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 3.

لكن الليبرالية إذ تحاول إقناعنا بصلاحية النظام الرأسمالي، وعدم جدوى التغييرات الجذرية، واستحالة العيش خارج فضاء الديمقراطية، فإنه هنا على وجه التحديد يتمثل جوهرها اليوتوبي والمتمثل في النظر إلى الديمقراطية بوصفها "الحاكم- الدالّ". ومن هنا ينصبّ نقد جيجيك للديمقراطية لا على أساس النظام ذاته، وإنما على أساس الفهم الليبرالي عنها؛ فالديمقراطية- ووفقًا لهذا المنظور الليبرالي- هي الصنم الأكبر؛ لأنها تقوم على أساس تنحية الصراعات السياسية، والتمايزات الطبقية والاجتماعية، واختزال الأفراد والجماعات في صورة حشد عددي يمكن ترقيمه(١).

وإذا كان قد أصبح من المستقر عليه أن مَنْ يخرج على الديمقراطية هو اليمين الشعبوي الراديكالي، فإن الليبرالية من الناحية الأخرى توظف هذا الأمر لتحجيم اليسار الراديكالي، موجهة القول لهم: "عليكم ألا تلعبوا بالنار، فأمام هذه الهجمة لليمين الجديد، يجب أن نتكاتف أكثر من أي وقت مضى لحماية هذا الإجماع الديمقراطي، وأن نَكُفّ عن انتقاده- بقصد أو من دون قصد- مثلما يتعيَّن أن نَكُفّ عن الشروع في أي محاولة للتغيير الجذري". لكن يجب علينا- كما يقول جيجيك- أن نرفض هذا الادعاء كلية؛ لأنه يستهدف أساسًا الدفاع عن البنى والمؤسّسات الرأسمالية المهيمنة، مع ضرورة تعرية هذا الإجماع الديمقراطي وزعزعة أركانه، من أجل نقد جذور الفكرة الديمقراطية ومُساءَلة الأساسيات الليبرالية التي تقوم عليها(٢).

من هنا يذهب جيجيك إلى أن فكرة وجود "ديمقراطية نزيهة" مجرّد وهم، وما يظهر كتشوهات عارضة في المشروع الديمقراطي هي عيوب متأصلة في بنية نظامها الليبرالي ذاته(٣). كذلك فهو لا يرى اختلافات جوهرية بين الفاشية التقليدية التي سادت بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٨-١٩٣٩) والفاشية الجديدة في عصر ما بعد الحداثة والتي تسبَّبت فيها الليبرالية؛ فإذا كانت الفاشية التقليدية قد تميَّزت بالشعبوية، وتقف ضد الديمقراطية، وتَتبنَّى أفكارًا عنصرية وسياسات بيولوجية، وتتَّسم بتجذر النزعة القومية وتقييد مبدأ المواطنة على أساس العرق، وتستهدف الهيمنة الاقتصادية والعسكرية، فإن فاشية عصر ما بعد

---

(1) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, PP. 78-79.

(2) Žižek: "***Lenin's Choice***", P. 302.

(3) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 79.

الحداثة– وإنْ كانت تميَّزت بالتعددية الثقافية– فإنها من الناحية المقابلة تتميَّز بالشعبوية الديمقراطية، وسياسة الاستفتاء التافهة، كما شملت أحزاب اليمين المتطرف في أوروبا(١).

من ناحية أخرى فإن الليبرالية إذ تحاول أن تضع أمامنا الخيار المتمثل في: إما "الديمقراطية الليبرالية"، أو "الأصولية الدينية"، فإنها بهذا تجهل– أو بالأحرى تتجاهل– أن الاختيار لا يكون بهذه الطريقة، ومن خلال هذين البديلين فقط. إنها تَفرِض الديمقراطية الليبرالية؛ لأن الليبراليين ذاتهم متأكدون في قرارة أنفسهم أنه من المستحيل اختيار "الأصولية". ومن ثَمَّ فإن الإشكالية لا تكمن في "الأصولية" ذاتها، بل– بالأحرى– في الطريقة التي تَفرِض بها الليبرالية هذا الخيار على الأفراد والشعوب الإنسانية، وكأنها تواجههم بأن البديل الوحيد "للأصولية" هو النظام السياسي الذي تُمثِّله الديمقراطية الليبرالية(٢).

إن طرح المسألة بهذه الطريقة يعمل من جانب على تشويه طريقة إدراكنا لمسألة الاختيار الحقيقية، كما يُخفي من جانب آخر مدى سطوة الرؤية الأحادية التي تتزعمها الولايات المتحدة لفرض الديمقراطية الليبرالية الأمريكية على العالم أجمع. ويشير جيجيك إلى أنه إذا كان العديد من المفكرين السياسيين في الوقت الراهن يَدَّعون أنهم يرفضون أطروحة «نهاية التاريخ»، فإنهم بطريقة أو بأخرى يؤمنون بها، ويسيرون حرفيًا على نهج فوكوياما؛ لأنهم يقبلون الديمقراطية بوصفها الأفق الأقصى للتاريخ، والنموذج السياسي الأمثل من بين كل البدائل الأخرى الممكنة، وكل ما ينبغي القيام به هو محاولة جعلها أكثر انفتاحًا وتسامحًا. وهنا يتم تقديم الديمقراطية ليس على أنها الأفضل على نحو مطلق، وإنما على أنها الأقل سوءًا، ويتم تقديمها بهذا الشكل في صيغة سحرية– لتمرير الرأسمالية من خلالها– وبحيث تكون قادرة على كسر الجمود في المجتمعات المعاصرة، مقارنة بالتجارب الشمولية التي أثبت التاريخ المعاصر أنها نماذج للمشروعات الفاشلة، وللرهان الخاسر(٣).

ويُحلِّل جيجيك الرسالة الأيديولوجية التي حاولت الولايات المتحدة تمريرها وتوصيلها إلى العالم أجمع بعد وقوع أحداث ١١ سبتمبر. كانت الرسالة تتمثل في الآتي: "**إن الخيار الوحيد أمام شعوب العالم هو إما الانحياز ضد الإرهاب، أو الوقوف معه. وفي هذه اللحظة الراهنة بالذات يتعيَّن على الشعوب أن تنحاز وأن تقف صفًا واحدًا ضد الإرهاب**".

(**1**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 75; Žižek: ***Violence***, P. 148.

(**2**) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 3.

(**3**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 88.

إن فحوى هذه الرسالة بهذا الشكل يُوحي أنه إذا كان لا أحد يقف مع الإرهاب (على الأقل بشكل صريح)، فإن هذا يعني أن من يشكك في أصوله الدينية، أو يُعيد مُساءَلة عنفه وإرجاعه إلى أصوله الحقيقية، سيتعرض للإدانة؛ لأنه بذلك يؤيد الإرهاب بشكل ضمني. وهنا على وجه التحديد تكمن طريقة التعمية عن إدراكنا للأسباب التي أفرزت الإرهاب، وهي الطريقة التي ينبغي تعريتها: **ففي مثل هذه اللحظات التي يتجلَّى فيها الوضوح الظاهري للخيار يظهر الغموض والتعمية الأيديولوجية الشاملة**. ومن هنا لا يكون هذا الخيار البراجماتي المفروض علينا هو الخيار الحقيقي، وإنما هو خيار مُشَوَّه ومُضَلِّل تحاول الولايات المتحدة من خلاله تدعيم الديمقراطية الليبرالية من جانب، وتستهدف من ورائه تأطير طريقة إدراكنا للواقع من جانب آخر[1].

من هنا يكشف جيجيك بمزيد من الإيضاح عن **زيف الاختيار بين الديمقراطية الليبرالية، أو الأصولية**؛ أي وضع الديمقراطية في تضاد مع الأصوليات الدينية والسياسية، وكأن الاختيار المتاح أمام شعوب العالم منحصرٌ في الأولى، أو الثانية. إن زيف هذا الاختيار يتكشّف من خلال نقد محاولات وضع الحداثة الليبرالية في مقابل حصري مع الأصوليات الدينية والإثنية: فهذا الخيار الذي تواجهنا به الأيديولوجيا الليبرالية يُمثِّل تضليلًا لطريقة إدراكنا لمسألة الاختيار الحقيقية من جانب، ويقف وراءه الخيار المفروض علينا من جانب العولمة الرأسمالية الأمريكية.

ويشير جيجيك إلى أن الرأسمالية سارت طوال القرن العشرين على هذا الخط الأيديولوجي: فمن أجل أن تدمر عدوّها الحقيقي (الشيوعية)، بدأت تلعب بالنار، ونتج عن الغلو في تطبيقها ظهور النازية، والحركات الدينية الفاشية، واليمين السياسي المتطرّف؛ فلم يكن أمام الرأسمالية الأمريكية إلا أن تتحالف مع شيوعية الاتحاد السوفييتي كمحاولة لإخضاع الفاشيات الدينية والسياسية. والدليل على ذلك أن الحرب بين الرأسمالية والشيوعية ظلت باردة، في حين تم شن حرب ساخنة كبرى ضد الحركات الإرهابية الدينية والسياسية. وحالة طالبان أصدق دليل على ذلك؛ إذ تم تأسيسها لمحاربة الشيوعية، لكن ما إن سقطت الشيوعية حتى تحولت إلى العدو الرئيس للرأسمالية. ومن هنا فحتى مع التسليم بأن الإرهاب يُمثِّل تهديدًا خطيرًا للإنسانية، فإن مشروع «الحرب على الإرهاب» الذي تزعمته أمريكا لا ناقة للشعوب الأخرى فيه ولا جمل؛ لأنه ليس كفاحها في الأساس، وإنما هو كفاحٌ داخلي في

---

(1) Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 54.

العالم الرأسمالي الأمريكي ذاته، ومن هنا يتعيَّن على الشعوب ألا تخوض صراعات العدو بدلًا منه[1].

وفي هذا الإطار يكشف جيجيك عن الاستخدام المُلْتَبَس للكثير من المفاهيم والمصطلحات الرائجة في الأوساط الثقافية والأكاديمية الراهنة، مثل «**الفاشية الإسلامية**» "Islamic Fascism"، و«**النازية العربية**». وهي المفاهيم التي تم الترويج لها في كتابات «برنارد لويس» (Bernard Lewis)، و«برنارد هنري ليفي» (Bernard-Henri Lévy)، و«فوكوياما». خذ مثلًا مصطلح «الفاشية الإسلامية»: فمن المعروف أن الفاشية أيديولوجيا يَمِينية عَلمانية، وعلى وجه التحديد حركة سياسية ظهرت في إيطاليا في فترة تاريخية معينة، وتتَّسم بتجذر النزعة القومية، وتستهدف الهيمنة العسكرية. أما الحركات الإسلامية فقد ظهرت في ظل ظروف مغايرة، وكانت في أكثرها ردود فعل زائفة ضد الخلل الكامن في الليبرالية التي نتج عن تطبيقها ظهور الأنظمة الرأسمالية. وبالمثل فإن حروب أمريكا ضد العراق وأفغانستان وغيرها كانت الشرارة التي مهَّدت الطريق مرة أخرى لصعود الحركات الدينية، وهي التي تُسمى بالفاشيات الإسلامية[2].

والأمر نفسه ينطبق على مصطلح «**النازية العربية**» الذي يُستعمل للإشارة إلى المفكرين العرب- والغربيين أيضًا- الذين يدافعون عن حقوق الشعب الفلسطيني في وحدة أراضيه، ويُظهرون علانية معاداتهم للكِيان الصَهيوني. في حين أن النازية أساسًا حركة يَمِينية ترفض الاعتراف باليهودية- كدين- إضافة إلى معاداتها للسامية كعرق.

كذلك يتكشّف البعد الأيديولوجي لمقولة «**الحرب على الإرهاب**» من خلال الدور الذي قام به بوش في هذه الحرب، مُمارسًا في ذلك نوعًا مما يسميه جيجيك "التخييل الجنوني القائم على الارتياب" (Paranoiac Fantasy). تشتغل هذه المقولة بوصفها عاملًا يستهدف تهدئتنا حتى نتمسك شيئًا فشيئًا بقناعة زائفة بأن شيئًا لم يتغير فعلًا[3]. ولهذا السبب يشير جيجيك إلى أن الصراع الأيديولوجي في الوقت الراهن لم يَعُدْ يقتصر على مستوى النقاش والحجج فحسب، وإنما تعداه إلى مستوى صنع الصور التي لا تعدو أن تكون من قبيل الأكاذيب، وإنْ كان لها من الصدق نصيب، خاصة فيما يتعلق بالطبيعة الفعلية

---

(1) Ibid, PP. 54-55.

(2) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 42-43, 74.

(3) Žižek: ***The Universal Exception***, P. 276; Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, P. 35.

لهذه الحرب بطريقة ألعاب الفيديو، والاستعانة بالتطور في مجال تكنولوجيا الاتصال[١].

نستنتج من ذلك أن الديمقراطية الليبرالية تُمثِّل في رأي جيجيك الوجه الآخر الشَبِيه لاستبداد اليمين المتطرّف في أوروبا، ويُدلِّل على ذلك أثناء حديثه عن "الشمولية" موضحًا أنه ليس مفهومًا نظريًا ينطبق على تلك التجارب التاريخية التي حاولت فرض سيطرتها على كافة جوانب الحياة العامة والخاصة؛ بما في ذلك الاقتصاد والتعليم والثقافة والدين، لكنه مفهوم أيديولوجي يتم توظيفه من الناحية العملية لتمرير الرأسمالية والترويج للديمقراطية الليبرالية من ناحية، وإدانة اليسار الراديكالي والطعن في نقده لهما من ناحية أخرى. وبالتقابل مع هذا الاستخدام الأيديولوجي، مهَّدَ الليبراليون الطريق للدخول في أفق الديمقراطية الليبرالية التي لا تزال مهيمنة حتى الآن[٢].

لكن إذا كُنّا نتفق مع جيجيك بشأن التوظيف الليبرالي النفعي لمفهوم الشمولية، إلا أننا لا نتفق معه في تعميماته المتحيزة؛ إذ إن ظهور الأنظمة الشمولية كان هو المحرك الأول للكثير من الأعمال الوحشية التي أُرتُكبت مؤخرًا، وإذا كانت معظم هذه الممارسات قد صدرت عن الأنظمة الشمولية اليَمِينية في كلٍّ من إيطاليا وألمانيا وإسبانيا، فإن بعض الأنظمة اليسارية تشترك معها في جانب منه– في روسيا مثلًا في عهد ستالين، وفي كمبوديا أثناء فترة الرئيس «بول بوت».

كذلك فإن الأمر المهم هو أن الديمقراطية الليبرالية سابقة في الظهور– من الناحية التاريخية– على الأنظمة الشمولية، ومن ثَمَّ فإن ادعاء جيجيك بأن الليبراليين ابتدعوا مصطلح الشمولية وروجوا له، وذلك كمحض مفهوم لتدعيم الديمقراطية، يفتقر إلى الدليل التاريخي. ومن هنا فإذا كان جيجيك يذهب إلى أن استخدام مفهوم الشمولية يحوي أبعادًا أيديولوجية في الأساس، فإنه بالمثل يقع في المغالطة نفسها والمتمثلة في نظرته للشمولية من دون مراعاة لأبعادها التاريخية والسياسية.

وعلى أية حال فإننا نلاحظ أن جيجيك يخالف كلًّا مِن «كارل بوبر»[٣] (Karl R. Popper) (١٩٠٢–١٩٩٤)، و«حنَّه أرندت»[٤]، اللذَينِ كرسا فكرهما للدفاع عن المجتمع

---

(1) Žižek, Slavoj: ***Iraq: The Borrowed Kettle***, London & New York: Verso, 2005, PP.2–4.

(2) Žižek, Slavoj: ***Did Somebody Say Totalitarianism? Five Essays on the (Mis)Use of a Notion***, London & New York: Verso, 2002, P. 3.

(٣) بوبر، كارل: **عقم المذهب التاريخي**، ترجمة: عبد الحميد صبره، الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٥٩، ص ص. ١٠٢–١٠٣.

(4) Arendt, Hannah: ***The Origins of Totalitarianism***, P . 460.

المفتوح، ونقد الأنظمة الشمولية التي تستهدف من ناحية التحكم في المجتمع وإعادة بنائه "ككل" طبقًا لخطها الأيديولوجي، بعد أن تكون قد دمَّرت كل التقاليد الاجتماعية والسياسية، ومن ناحية أخرى السيطرة على الأفراد وتحويلهم إلى مجرّد آلات تدور في فلك هذه الأنظمة. أما بالنسبة لجيجيك، فإن فكرة المجتمع المفتوح تُعَدُّ فكرة مستحيلة، وهي مُنتَج من منتجات الليبرالية التي تعكس نوعًا من التبرير الذاتي للرأسمالية.

كذلك فإذا كان جيجيك يذهب إلى أن الليبرالية تعمل على وضع خيار زائف بين الديمقراطية من جانب، والأصولية من جانب آخر، فإنه من الملاحظ تأثره في ذلك بالفيلسوف الفرنسي «آلان باديو» (Alain Badiou) (١٩٣٧-...؟) الذي شجب استخدام الديمقراطيين الليبراليين لمصطلح الشمولية كشكل من أشكال النقد الأيديولوجي، أو كنوع من "تحريم التفكير"، والذي يستهدف في نهاية المطاف الحيلولة دون اللجوء إلى بدائل أخرى للرأسمالية[١].

وفي الحقيقة إن هذا الإعلان الجديد لميلاد الديمقراطية الليبرالية جاء متزامنًا مع المزاعم التي ظهرت منذ الستينيات من القرن العشرين والتي تقول بنهاية الأيديولوجيا. فما أبرز انتقادات جيجيك لهذه الفكرة؟

(د) الموقف من نهاية الأيديولوجيا:

مثَّلت آراء جيجيك السابقة نقطة انطلاقه لرفض الادعاءات التي تروج لنهاية الأيديولوجيا. فوفقًا له، إن الليبرالية الجديدة تروج لفكرة أن الأنظمة الأيديولوجية القديمة فقدت صلاحيتها، وهذا بالضبط ما تقوم عليه الأيديولوجيا- في صورتها الأصلية- من أنها ذات مرجعية ذاتية. أي أنه وبهذه الطريقة تظهر الليبرالية من خلال نقيضها «اللاأيديولوجيا»، ومن ثَمَّ يتم تمرير الرأسمالية في الجانب الاقتصادي، والديمقراطية الليبرالية في الجانب السياسي على أنهما البديلان الأفضلان من بين كل البدائل الأخرى، ولهذا يؤكد جيجيك: «إن الزعم بالخروج من آفاق الأيديولوجيا نهائيًا لا يعدو أن يكون محاولة لاستعبادنا داخل أيديولوجيا محددة»[٢].

جاءت هذه الفكرة التي تقول بنهاية الأيديولوجيا من مفكرين ومُنظِّرين ينتمون إلى حقبة ما بعد الحداثة، مثل «ريمون آرون» (Raymond Aron) (١٩٠٥-١٩٨٣)،

---

(1) Johnston, Adrian: ***Badiou, Žižek, and Political Transformations: The Cadence of Change***, Evanston: Northwestern Univ. Press, 2009, P. 5.

(2) Žižek: "***The Spectre of Ideology***", P. 6.

و«دانيّال بيل» (Daniel Bell) (١٩١٩-٢٠١١)، و«سيمور مارتن ليبَست» (Seymour Martin Lipset) (١٩٢٢-٢٠٠٦)، وتتركّز مجمل رؤيتهم على أنه بالنظر إلى فشل السرديات الاقتصادية الكبرى، فإن مفهوم الأيديولوجيا ذاته أصبح عديم الفائدة[١]. ومن هنا روجوا لفكرة أن الأيديولوجيات في طريقها إلى الفناء؛ لأنه في ظل المجتمعات التكنوقراطية، لم تَعُدْ للصراعات الاقتصادية القديمة مكانًا، وإنما حل محلها الخلافات السياسية "المحدودة" حول كيفية حل المشكلات في المجتمعات ما بعد الصناعية[٢].

وفي الواقع إن فشل الكثير من التجارب الاشتراكية في القرن العشرين، وخاصة ما كانت تشهده الشيوعية من انْحِسار من جانب، وتقدم التقنيات الصناعية من جانب آخر، دفع بالفيلسوف الفرنسي «**ريمون آرون**»، في كتابه «**أفيون المثقفين**» عام ١٩٥٥، إلى التنبؤ بانتهاء الأيديولوجيا كآخر نسق فكري وعقائدي. وقد انتقد اليسار الفرنسي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية والذي اتخذ من الماركسية دينًا، معتبرًا إياه يَحمل فكرًا يوتوبيًا لا يقوم على أي أساس سليم، بل على مجرّد الأساطير التي تستهدف تجاوز الواقع عن طريق التغيير الجذري[٣]. وعلى حدّ قوله: «إن أسطورة الثورة بمثابة ملاذ أخير للمثقفين الشيوعيين اليوتوبيين؛ إنها الوَسِيط الغامض وغير المتوقع بين الواقع والمثال»[٤].

وفي المقابل ذلك يذهب آرون أن الصراعات السياسية في عالم اليوم يمكن حلها عن طريق الإصلاحات وليس عن طريق العنف والتغيير الجذري، ولهذا فهو يدافع عن الديمقراطية الليبرالية في المجال السياسي، ويقدم لها التبريرات النظرية، مروجًا لفكرة عدم إمكانية قيام بديل أفضل منها؛ لأنها أثبتت- حسب زعمه- صلاحيتها وقوتها في مقابل الثورات البروليتارية وأيديولوجيات العنف الأخرى[٥].

كذلك فقد نَحا «**سيمور مارتن ليبست**»، في كتابه «**الإنسان السياسي**» (Political Man) عام ١٩٥٩، إلى القول بأن الأيديولوجيات قاربت على الزوال؛ لأن الاختلافات بين اليسار واليمين لم تَعُدْ عميقة، مُضيفًا أن المجتمعات الغربية في فترة ما بعد الحرب لم تَعُدْ

---

(1) Enteman, Willard F.: ***Managerialism: The Emergence of a New Ideology***, Madison: Univ. of Wisconsin Press, 1993, P. 8.

(2) Lloyd, Moya: "***The End of Ideology***", P. 220.

(3) Aron, Raymond: ***The Opium of the Intellectuals***, trans.: Terence Kilmartin, New York: Norton, 1962, P . 31.

(4) Ibid, P. 65.

(5) Ibid, P. 107.

في حاجة إلى الأيديولوجيات؛ لأنها وجدت الحلول للمشكلات الاجتماعية للثورة الصناعية. فقد حصل العمال على حقوقهم السياسية والاقتصادية، ورَضَخ المحافظون لقبول دولة الرفاهية، وأدرك الديمقراطيون الاجتماعيون أن توسيع سلطة الدولة من شأنه أن يَحمل خطرًا على الحرية أكثر مما يَحمله من حلول للمشكلات الاقتصادية(١).

ومن خلال هذه الإصلاحات المتمثلة في الزيادات الدورية للرواتب، وتخفيض الضرائب، وتقليل ساعات العمل اليومي، والتي شرعت المجتمعات ما بعد الصناعية في تنفيذها، برَّر ليّبَست الديمقراطية معتبرًا إياها «ليست مجرّد وسيلة يستطيع الأفراد أن يحققوا عن طريقها أهدافهم، أو ينشدوا المجتمع الفاضل بواسطتها، وإنما هي أقرب طريق يؤدي إلى المجتمع الفاضل نفسه أثناء التطبيق»(٢).

وعلى الخط نفسه، ذهب «**دانيّال بيل**»، في كتابه «**نهاية الأيديولوجيا**» عام ١٩٦٠، إلى أن الأيديولوجيات قد أوشكت على الأفول؛ لأن التكنولوجيا كفيلة بحل المشكلات السياسية والاجتماعية التي ظهرت الأيديولوجيات خصيصًا لمواجهتها، مُعولًا على التسويات، والإصلاحات السياسية، بحيث يمكن للأجيال القادمة أن تساهم في بناء المستقبل، وأن تُعبِّر من خلالها عن ذاتها(٣).

ومن جانبه، يكشف جيجيك عن أن هذه الادعاءات كانت- ولا تزال- مجرّد وسيلة لتقويض ما بقي من الحركات الاشتراكية، وفي الوقت نفسه وسيلة لتعزيز الديمقراطية الليبرالية، مع التأكيد على تدخل الدولة- لكن في حده الأدنى- وذلك كله يَصُبّ في اتجاه تعزيز الرأسمالية، واقتصاد السوق الحر الذي نزعت الليبرالية الجديدة إلى تأطيره من جديد، وعلى حدّ تعبيره: «**إذا كانت الحقبة المعاصرة تعلن عن نفسها بأنها "ما بعد أيديولوجية" Post-Ideological، فإن هذا التبرير لموت الأيديولوجيا لا يُقدم سوى برهانًا حقيقيًا على أننا مُطوَّقون أكثر من أي وقت بالأيديولوجيا**»(٤).

---

(١) ليبست، سيمور مارتن: **رجل السياسة: الأسس الاجتماعية للسياسة**، ترجمة: خيري حماد، بيروت: دار الآفاق، ١٩٦٢، ص. ٢١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ص. ٢١٠-٢١١.

(3) Bell, Daniel: ***The End of Ideology: On the Exhaustion of Political Ideas in the Fifties***, New York: Free Press, 1960, P. 405.

(4) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 37.

من هنا وعن طريق الترويج لفكرة أننا نعيش في عالم ما بعد أيديولوجي، يتم تمرير ذلك النموذج الأيديولوجي الجديد، وأن هذا العصر المزعوم بأنه ما بعد أيديولوجي، هو في الواقع عالم يعيش نمطًا آخر من أيديولوجية المجتمعات ما بعد الصناعية، وهو نمط يقوم على الكسب السريع، والنزعة الاستهلاكية غير المحدودة، والسيطرة الاقتصادية والعسكرية[١].

وإذا كان أنصار هذه الادعاءات يرون أن الأيديولوجيات لم تصبح موجودة في عالم اليوم، وإنما صرنا- بفضل تطور التقنية- أمام نوع من العقلانية التي تنزع إلى تدبير الشئون السياسية على أساس من الخبرة، والتعايش بين الأفراد والمجموعات المختلفة، والتسويات المتبادلة بين المصالح المتضاربة، فإن جيجيك يرى هذه الادعاءات مجرّد حِيَل لتقديم الرأسمالية بمصطلحات تقنية؛ ليس بوصفها علمًا، وإنما بوصفها شيئًا ما يعمل باستمرار، ونظامًا يقوم على معايير نزيهة، ومن بينها التنافس الحر؛ الأمر الذي لا يجعل هناك حاجة لتقديم أي نوع من التبرير لها؛ لأن نجاحها في حد ذاته هو تبرير كاف[٢].

على هذا النحو يتم تمرير الرأسمالية على أنها المقابل الموضوعي للاشتراكية التي تحتاج في ذاتها إلى دليل وتبرير لقبولها. وإن الزعم بأن كل الأيديولوجيات أخفقت، ولم يَعُدْ من بديل سوى الرأسمالية في الاقتصاد، والديمقراطية الليبرالية في السياسة، ينطلق من خلفية أيديولوجية محددة تريد أن تجعل من الرأسمالية البديل الموضوعي الوحيد الذي لا يحتاج إلى تبرير، وعلى حدّ تعبير جيجيك: «إن هذا التفسير الذي ينزع من الرأسمالية صفة التبرير الأيديولوجي تفسيرٌ زائف؛ لأن مفهوم الرأسمالية كآلية اجتماعية محايدة يستند في حد ذاته إلى أساس أيديولوجي، بل هو "أيديولوجيا يوتوبية" (Utopian Ideology)- إذا جاز التعبير- في أنقى صورها»[٣].

ونظرًا لأن نهاية الأيديولوجيا تعني في الأساس زوال الصراعات الاقتصادية، فإن هذا معناه تجاوز البعد التأسيسي "للسياسي" ذاته، والوصول إلى نوع من "السياسة من دون سياسة"- على حدّ تعبير جيجيك. ومن هنا تنصبّ مزاعم أنصار ما بعد الأيديولوجيا على الترويج لنمط محدد من السياسة يُسمى بـ«السياسة الحيوية» "Bio-Politics" التي تُركّز على أهمية الخبرة والتخصص، والإدارة الرشيدة، وحُسْن تنظيم أمن الناس، وحماية أرواحهم،

---

(1) Žižek: "***Lenin's Choice***", P. 310.

(2) Žižek: ***In Defense of Lost Causes***, P. 2.

(3) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 25.

والتفاوض حول المصالح المتضاربة للوصول إلى تسوية بشأنها، واعتبار هذه التسوية على أنها إجماع كوني لا يجوز لأحد الخروج عليه[١].

إن هذا الطابع الذي يُميِّز عصرنا المزعوم يعني أننا نعيش في عصر تعمل فيه التدابير والترتيبات الاجتماعية على نزع الطابع الذاتي من الأفراد دون إنتاج طابع ذاتي شخصي جديد[٢]. ولهذا السبب، فإن هذا النمط من "السياسة الحيوية" يقوم على أساس تعبئة الجماهير، من خلال عنصر الخوف من التهديد المحتمل للمهاجرين، ومن انتشار الجريمة، ومن التحرش والانحلال الجنسي الذي لا يعرف أدنى رحمة، ومن تسلط الدولة ذاتها ممثلًا في فرضها لضرائب عالية، ومن الكوارث البيئية. ومن ثَمَّ فهي سياسة ذعر أساسًا، كما يبدو الإصلاح التدريجي- لا التغيير الجذري- هو الشكل النموذجي لهذا النوع من سياسة الخوف. وعلى هذا تعتمد سياسة (ما بعد الأيديولوجيا) هذه دائمًا على التلاعب واستغلال المواطنين بوصفهم مجموعة من الرعاع والدهماء[٣].

نستنتج من هذا أن الليبرالية الجديدة تحتفظ بقوتها في عصرنا ما بعد الحداثي من خلال نوع من الشَفّافِيّة الذاتية الزائفة على نحو ما نجده في النقد الماركسي التقليدي لليبرالية. ولذلك، فإن ما يتبدّد في عالمنا اليوم ليس هو- كما يقول جيجيك- "الواقع" ذاته الذي تغطيه الأوهام والتخيلات الأيديولوجية، بل المظهر ذاته أو "تمثُّل" بعض المعايير الملزمة، وفرض قوتها "الأدائية" المؤثرة. وبالتالي نجد الليبرالية الجديدة تنزع نحو ما هو "واقعي"- أي التعامل مع الأشياء والأمور كما هي عليه في الواقع- وهذه أسوأ صور الأيديولوجيا[٤].

(**1**) Ibid, P. 40.

(**2**) Žižek: ***Less Than Nothing***, P. 985.

(**3**) Žižek: ***Violence***, P. 41.

(**4**) Žižek: ***Did Somebody Say Totalitarianism?***, P. 246.

المحور الرابع: الثورة والروح الجديدة لرأسمالية «ما بعد الحداثة»

أولًا: أزمة الرأسمالية وسطوتها:

(أ) الأزمات الحالية في الرأسمالية:

إذا كانت الأيديولوجيا الليبرالية تعمل باستمرار على فرض نموذج شامل وكلي، فإن ذلك يعمل على تحويل كل شيء (حتى شن الحرب إذا اقتضت الضرورة ذلك) إلى أدوات تعزز بنيتها الأساسية وتحقق أهدافها. وهنا- على وجه التحديد- يكمن الخطر بعينه والمتمثل في تضليل إدراك الأفراد، وكما يقول جيجيك:

«إن التفكير السائد حاليًا عن أسباب الانهيار والأزمة المالية من شأنه أن يَدفع الجميع إلى الوقوع في الوهم، بدلًا من أن يُوقظنا من الأحلام الزائفة. وهنا يتعيَّن علينا أن نبدأ بالتساؤل من جديد مرات ومرات، ليس فقط للقلق بشأن العواقب الاقتصادية الوخيمة للانهيار، بل أيضًا لمقاومة الإغراءات الواضحة لإعادة تفعيل مشروع (الحرب على الإرهاب)، وتنشيط التدخلات الأمريكية، وهي اغراءات لا تهدف لشيء سوى المحافظة على دوران محرك الاقتصاد الرأسمالي- وعلى أقل تقدير استغلال الأزمة لفرض المزيد من التدابير والإجراءات غير العادلة "للتكيُّف البنيوي" للرأسمالية»[1].

وإذا نظرنا إلى جوهر الأزمات التي تعاني منها الرأسمالية في رأي جيجيك، سنجدها نابعة أساسًا من جوهر بنيتها الليبرالية، ولهذا نجدها تنزع إلى تقديم التنازلات للخروج من الدائرة المغلقة للإنتاج بوصفه هدفًا في ذاته. فالرأسمالية بشكلها الحالي بحاجة دائمًا إلى تقديم المزيد من التنازلات على شكل هبات اقتصادية، وإحسان اجتماعي؛ من أجل إدامة دورة إعادة الانتاج[2].

من هذا المنطلق يذهب جيجيك إلى أن الرأسمالية تتسبَّب في إحداث العديد من المشكلات الكبرى، كما أنها تحوي في طيَّاتها تناقضات كافية تمنع استمرارها كنظام اقتصادي، أو إعادة خلق نفسها من جديد، وهذه التناقضات على النحو الآتي:

(١) "**الأزمات المناخية والبيئية**": وتتمثل في التهديد الوشيك الذي تُحدثه الرأسمالية للبيئة من حيث الاحتباس الحراري، وأزمة المناخ، والإبادة التدريجية للغابات والبيئات الطبيعية لاستخراج الموارد.

(**1**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 19.

(**2**) Žižek: ***Violence***, P. 24.

(٢) "**النتائج الوخيمة للثورة البيولوجية**": وتتمثل في الآثار الأخلاقية والاجتماعية للتطورات الحديثة في مجال علم الجينات الحيوي Biogenetics، وتحويل الطبيعة البشرية إلى إنسان جديد.

(٣) "**اختلال التوازن، وغياب الضوابط الذاتية للأسواق**": وهو ما يتمثل في الصراعات التي تلوح في الأفق على المواد الخام، والغذاء، وكذلك في عدم التناغم القائم بين "الملكية الخاصة" من جانب، و"الملكية الفكرية" من جانب آخر.

(٤) "**تزايد عدد الفقراء والمهمشين**": وذلك من حيث النمو السريع للانقسامات الطبقية، والمتمثلة في الأشكال الجديدة من التمييز العنصري، والاقصاءات الاجتماعية كما يحدث– على سبيل المثال– في بناء جدران للفصل بين المدن والأحياء الغنية والمدن والأحياء الفقيرة[١].

هذه هي الأزمات الحقيقية التي تواجه الرأسمالية؛ فالتمييز الواضح بين الأحياء الغنية والأحياء الفقيرة، بين مَنْ يتمتع بحقوقه السياسية والاجتماعية ومَنْ تم إقصاؤه، تمييز قديم، لكنه أصبح في الوقت الراهن أكثر حدة. وبالمثل فإن إنقاذ البيئة لا يمكن أن يتم دون القضاء على الرأسمالية التي تسبَّبت في حدوث الأزمات البيئية، وغيرها من الأزمات والمشكلات الأخرى. إن هذه التناقضات تؤكد على ضرورة تقويض الرأسمالية من أساسها، وتبرهن كذلك على أن النظام الرأسمالي العالمي يقترب حثيثًا من نقطة الصّفر، وعلى حد تعبير جيجيك: «**إن هذه التناقضات تُمثِّل بداية النهاية للرأسمالية**»[٢].

من ناحية أخرى فإن نظام السوق الحر يفرض نفسه كنظام مهيمن على كافة المجالات، ويجعل الأفراد مستهلكين على الدوام، بل ويجبرهم على القيام "بواجب" الاستهلاك. ولذلك فإنه يؤدي إلى تفكك الروابط الاجتماعية، وعزلة الأفراد من جميع الجوانب، وتحطيم كل القيود، بحيث يكون الأفراد في نهاية المطاف مجرّد سلع مادية وذرات اجتماعية. وقد تلمَّس جيجيك حدود العنف الأيديولوجي الذي أحدثته الليبرالية الجديدة، مؤكدًا أنه في ضوء الكارثة البيئية والانصهار النووي، يبدو من الواضح تصور نهاية الرأسمالية[٣].

---

(1) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 90.

(2) Žižek: ***Living in the End Times***, x.

(3) Smith, Neil: "***The Revolutionary Imperative***", *Antipode*, Vol. 41, No. S1, 2009, P.64.

(ب) السطوة الفعلية للرأسمالية.

يذهب جيجيك إلى أنه ليس ثَمَّة صلة جوهرية بين الديمقراطية والرأسمالية، وكلّ من يربط بينهما إنما يقوم بزرع الأوهام في العقول. وهذا التزييف لا يتم بشكل مباشر، وإنما من خلال التوحيد العضوي بينهما، ووضع الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان في مقابل وحيد وحصري ضد التهديدات التي تَفرِضها الأصوليات الدينية والأنظمة الشمولية. وهذا التوحيد بين الاثنين يسمح للرأسمالية أن تتكيّف دائمًا مع المستجدات الاجتماعية والتكنولوجية الجديدة، وأن تنمو في ظل وجود نظام مخالف لها؛ كأن تحيا وتتطور تحت حكم شيوعي مثلًا (كما يحدث في الصين حاليًا، والتي تُمثِّل البديل النيوليبرالي الاستبدادي للرأسمالية الغربية)، بل وأن تستفيد من جميع الأفكار المخالفة لها، بما في ذلك التقاليد الدينية المحافظة[1].

لكن كيف تَفرِض الرأسمالية سطوتها؟ وكيف يُمكِّننا كشف الأوهام التي تزرعها من حيث طريقة إدراك الأفراد لواقعهم الاجتماعي والاقتصادي؟

يذهب جيجيك إلى أن الرأسمالية وإنْ كانت ذات طبيعة عالمية، إلا أن أحد المخاطر الكامنة في آليات السوق التي تعمل في فلكها يتمثل في أن هذه الآليات تعمل على ترسيخ أوضاع أيديولوجية "لا عالمية" بالمعنى الدقيق للكلمة؛ مما يحرم الغالبية العظمى من الأفراد من أي توجُّهٍ معرفي ذي معنى، أو رؤية إدراكية صحيحة لطبائع الأمور، وعلى حدّ قوله: «**تمثل الرأسمالية أول نظام اجتماعي- اقتصادي "ينزع الصفة الكلية عن المعنى" (Detotalizes Meaning)؛ فهي ليست عالمية على مستوى المعنى. ومن ثَمَّ ليست هناك "نظرة رأسمالية عالمية"، كما لا توجد "حضارة رأسمالية" بالمعنى الدقيق. وكل ما يمكن أن نستخلصه من تجربة العولمة هو أن الرأسمالية يمكنها أن تتشكَّل لتتوافق وتستوعب كل الحضارات؛ من الحضارة المسيحية إلى الحضارة البوذية، مرورًا بالحضارة الهندية، ومن الغرب إلى الشرق**»[2].

وانطلاقًا من أن جوهر الليبرالية يتمثل في "حرية الاختيار" التي ترتكز على فكرة الذات "النفسية" ذات الطموح والموهبة، والتي لديها ميول ورغبات لا متناهية تريد تحقيقها، فإن هذا يضعنا وجهًا لوجه أمام ما يُسمّيه "**أولريش بيك**" (Ulrich Beck) "**مجتمع**

---

(1) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 39.

(2) Žižek: ***The Parallax View***, P. 181; Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 55; Žižek: ***The Universal Exception***, P. 307.

المخاطرة"، وذلك **عندما تسعى الليبرالية إلى مقايضة الناس كما في حالة انعدام الأمن الناجمة عن تفكك دولة الرفاهية بوصفها فرصة لإقرار حريات جديدة، وذلك في صيغة: "يتعيَّن على الدولة أن تغير عقود التوظيف كل عام، وأن تعتمد على عقود قصيرة الأجل بدلًا من التعيين الثابت"**[١].

من هنا تظل حرية الاختيار في ظل الليبرالية "حرية شكلية"، وهي تعمل في صيغة: "لماذا تتذمر وتشتكي؟ ألم تقم أنت باختيار ذلك؟" وهنا تكون الحرية مدخلًا لقبول الاضطهاد والاستغلال[٢]. وبعبارة أخرى، فإنه في ظل الرأسمالية، يضعنا مجتمع المخاطرة أمام معضلة الاختيار في وضعية من الاحتمالات عالية المخاطر، كما في حالة "الشغف بالواقعي" الذي يتعامل مع خبرة الألم على أنها من علامات الأصالة في العلاقات الرأسمالية[٣].

وفي الحقيقة إن سطوة الرأسمالية تمتد إلى كل مجالات الحياة تقريبًا؛ ذلك أن **السوق الحر في المرحلة الأخيرة من رأسمالية عصر ما بعد الحداثة (الرأسمالية ما بعد عام ١٩٦٨)، غزا كل المجالات التي كانت تُعَدُّ فيما مضى مقصورة على الدولة وحدها، بدءًا من السياسة، إلى التعليم، والثقافة، والصحة، وانتهاءً بإدارة السجون، وتفعيل القانون، والأمن، والنظام**[٤].

إن سيطرة السوق الحر على هذا النحو تؤدي إلى تسليع هذه المجالات. وعلى سبيل المثال، ففي المجال السياسي، أصبح يتم النظر إلى النظام الانتخابي في ضوء طريقة إدارة الشركات الحرة، وأوشك الاقتراع أن يكون عملية تجارية بحتة. وبالمثل، فبدلًا من أن تكون المدرسة خدمة عامة مستقلة؛ تتعهّدها الدولة وتعتبرها حِصن القيم التنويرية، أصبحت تهيمن عليها مختلف أنواع الشركات العامة والخاصة. كذلك فعندما كان يقع الإنسان في مشكلة، كان يلجأ إلى صديق يحكي له مشكلته، أما الآن وفي ظل اقتصاد السوق فهو يلجأ إلى طبيب نفسي أو مستشار ليحل له المشكلة. بل وامتد نظام السوق إلى تربية الأطفال الصغار؛ حيث لم يَعُدْ الآباء والأمهات يعتنون بهم، وإنما بدلًا من ذلك يَدفعون بهم إلى رياض الأطفال. كل هذا يؤدي إلى عملية جديدة لخصخصة المجتمع ككل[٥].

(**1**) Žižek: ***On Belief***, P. 116.

(**2**) Žižek: ***Violence***, P. 147.

(**3**) Dean, Jodi: ***Žižek's Politics***, PP. 191–192.

(**4**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 144.

(**5**) Loc. Cit.

تُمثِّل الرأسمالية نظامًا متفاقمًا لمنطق غير متماسك، والطريقة الليبرالية ذاتها لتنظيم الحياة الاجتماعية أصبحت، مثل الإقطاعية قبلها، فاسدة. وجيجيك بذلك يتصور الروح الجديدة لرأسمالية عصر ما بعد الحداثة كشكل من أشكال الأيديولوجيا، وهو شكل ذو طابع مُميَّز تعمل الليبرالية الجديدة من خلاله على أساس قيام البشر بشراء السلع واستهلاكها ليس من منطلق فائدتها وقيمتها المادية أو الرمزية فحسب؛ وإنما لما توفره من متعة خاصة، ولما تُضفيه على حياتهم من خبرة شكلية خاوية من المعنى، ومن ثَمَّ صارت الأشياء والسلع تتحكم في الأفراد وتحدد مسار أفعالهم. وإن هذه الروح الجديدة تعمل في شكل «حاكم- دالّ» جديد(١).

من هنا يستنتج جيجيك أن النظام العالمي الجديد هو الوجه الآخر المماثل للفاشيات السياسية، والقوميات الإثنية؛ لأن هذا النظام (والذي يُعَدُّ الناتو فيه الذراع العسكري للرأسمالية المتعددة الجنسيات)، لا يزال إلى الآن يمارس أبشع أشكال الوحشية في الحرب(٢). وفي هذا الإطار يكشف جيجيك عن سطوة العولمة الأمريكية، رابطًا من خلالها بين المزاعم الأمريكية حول الحرب على الإرهاب وبين الرأسمالية العالمية التي تسيرها مجموعة من الشركات الكبرى، ومُعقبًا على ذلك بقوله: «**ماذا ستعني "الحرب" في القرن الواحد والعشرين؟ ومَنْ سيكونون "هم"- في مقابل "نحن"- إذا لم يكونوا بوضوح لا دولًا ولا عصابات إجرامية؟ وبالمثل، أليست "المنظمات الإرهابية الدولية" هي الوجه الآخر البَذِيء للشركات الكبرى المتعددة الجنسيات والكلية الحضور رغم أنها دون قاعدة إقليمية واضحة؟ أليست الرأسمالية هي القالب الذي استُوعبت فيه الأصوليات الدينية والقومية؟**»(٣).

هكذا يرى جيجيك أنه إذا استمرت الرأسمالية في الوجود فسنصل إلى مرحلة الانهيار، وفي مقابل ذلك، فإن نظريته في الأيديولوجيا تؤكد على ضرورة إعادة تجديد المنطلقات المركزية للثورة في الفكر الماركسي؛ ولهذا السبب بالذات يمكن اعتبار نظريته على أنها نابعة بشكل أساسي من كونها نقدًا جذريًّا للرأسمالية، مثلما يمكن اعتبارها أيضًا

(**1**) Ibid, P. 52.

(**2**) Žižek, Slavoj: "***NATO as the Left Hand Of God?***", in: Sinkwan Cheng (ed.), *Law, Justice, and Power: Between Reason and Will*, California: Stanford Univ. Press, 2004, P. 44.

(**3**) Žižek: ***The Universal Exception***, PP. 276-277; Žižek: ***Welcome to the Desert of the Real***, PP. 37-38.

ردّة فعل على المعضلات التي تواجه الماركسية في العالم المعاصر[١]. ولذلك فإن جيجيك يَتبنَّى- وفق ما يرى «ماثيو شارب» و«جيف باوتشر»- نوعًا من "السياسة الطليعية" (Vanguard Politics)، حيث يدعو إلى ثورة شاملة ضد ما يسميه "الادعاء الليبرالي"، الذي يصير فيه كل مَنْ ينتقد الرأسمالية، والديمقراطية الليبرالية، "إرهابيًا"، أو "شموليًا"، أو "فاشيًا"- حسب الظروف[٢]!

من هذا المنطلق يذهب جيجيك إلى أن الخصومة التاريخية بين الرأسمالية والشيوعية تَفرِض علينا ألا نكون فقط مخلصين للفكرة الشيوعية، بل أيضًا أن نحدد لنا موقعًا ضمن تناقضات الواقع المعاصر التي تمنح للفكرة الشيوعية ضرورتها العملية[٣]. لكن التساؤل المهم الذي يطرح نفسه: إذا كانت سيطرة الرأسمالية تَفرِض علينا ألا نتأقلم معها، أو أن نصادق على مسلماتها، **فما ملامح الطريق نحو التحول الثوري؟ وكيف يمكن تحقيق يوتوبيا المجتمع العادل؟ ولماذا الفكرة الشيوعية تحديدًا؟**

ثانيًا: الثورة؛ ما قبل، وما بعد:

(أ) الثورة... من أين نبدأ؟ وماذا ينبغي أن نفعل؟

تختلف أفكار جيجيك حول ماهية الثورة عن أفكار ماركس وخاصة أطروحته الحادية عشرة عن فويرباخ، والتي يقول فيها: «**إن الفلاسفة لم يفعلوا شيئًا حتى الآن سوى أنهم فسروا العالم بطرقٍ مختلفة، وقد حان الوقت لتغييره**». فإذا كان ماركس قد اكتفى بالتأكيد على ضرورة تغيير العالم، فإن جيجيك يحاول إعادة صياغة هذه المقولة على نحو أكثر اتساقًا بالنظر إلى هيمنة الرأسمالية؛ فهو يذهب إلى أن النقيصة التي تتضمَّنها هذه المقولة تتمثل في أن التغيير قد يكون مَشُوبًا بتأثيرات الأيديولوجيا الحاكمة. وبالتقابل مع هذه المقولة، يذهب جيجيك إلى **أن الفعل الثوري لن يتم في فراغٍ، وإنما سيكون مُحددًا في إطار من معطيات الأيديولوجيا المسيطرة**[٤].

إن ما ينبغي التركيز عليه وفق ما يرى جيجيك ليس فقط تغيير العالم، بل أيضًا نقد البنى الأيديولوجية، والمؤسسات الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تُجسِّدها الأنظمة الرأسمالية، في ضوء فهم لآليّة الحراك الشعبي، وهي الأنظمة التي لا تتوقف يومًا بعد يوم

---

(1) McMillan, Chris: ***Žižek and Communist Strategy***, P. 23.

(2) Sharpe & Boucher: ***Žižek and Politics***, P. 165.

(3) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 90.

(4) Žižek: "***Lenin's Choice***", P. 170.

عن التغلغل والتوسع في مختلف جوانب الحياة. **وجيجيك بذلك يعكس مقولة ماركس؛ فالمطلوب ليس فقط الانخراط المباشر في التغيير الثوري، وإنما هناك ضرورة- قبل هذا- لتفكيك البنى والمؤسّسات الرأسمالية من الناحية النظرية من أجل إعادة فهمها وتفسيرها في إطارها المهيمن، وهو تفكيك يحتاج إلى صبر ومثابرة على العمل والنقد.**

وعلى الرغم من أن العديد من الحملات الإنسانية مثل حملة "أطباء بلا حدود"، والحركات الاجتماعية المناهضة للعنصرية، والتمييز بين الجنسين، والفقر، وتلوث البيئة، واستغلال الأطفال في العمالة، قد نجحت في إحداث تغييرات على أرض الواقع، فإن هذه التغييرات تظل شكلية وسطحية؛ حيث لا تشمل أي تغيير في البنى الأيديولوجية المهيمنة، كما لا تشمل أي تغيير إيجابي في أساليب وطرائق التفكير والإدراك الذي يستهدف بناء عالم أفضل. ولذلك، يستدرك جيجيك فيكشف عن أن هذه الحملات- على أهميتها ونبل أهدافها- تَحظَى ليس فقط بالتسامح، بل تَلقَى أيضًا قبولًا واسعًا، ودعمًا من وسائل الإعلام الرسمية، حتى لو قام بعضها بالتشكيك في المسائل الاقتصادية. ولذلك فإنها تظل مقبولة، وفي بعض الأحيان تدعمها السلطة ما دامت أنها لا تتخطَّى حدود الأيديولوجيا المهيمنة[١].

والواقع إن العديد من هذه الحركات كانت لها مردودات سلبية؛ حيث تخلق حالة من الاستسلام للواقع من جانب، وتعمل على التشويش على أهمية الأهداف التي ترمي إليها الحركات الثورية من ناحية أخرى. ويُصور «**ريكس بتلر**» (Rex Butler) عمل الأيديولوجيا على هذا النحو قائلًا: «تصبح الأيديولوجيا في مثل هذه الحالة كشاشة كلية وسلسة تمامًا؛ حيث يتكشّف لنا أن ما كُنّا ننظر إليه على أنه "واقع" كان يُمثِّل دائمًا "شيئًا افتراضيًا"»[٢]. كذلك يُعبِّر «**تشارلز ويلز**» (Charles Wells) عن رؤية جيجيك قائلًا: «يشتغل النظام الليبرالي على المساومات، بحيث يجعل الأفراد في النهاية غير قادرين على الخروج عن منظومته الأساسية ووضعها موضع النقد. كذلك فهو يعمل على إعادة إنتاج الرأسمالية التي تستهدف جني الأرباح من وراء كل فعل ثوري فاشل»[٣].

من هذا المنطلق يوضح جيجيك أن الحماسة الزائدة لهذه الحركات تنطوي على طابع إشكالي، وتُمثِّل نوعًا من الانهزامية، ومنطقًا سلبيًا للتعاطف، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار

---

(1) Ibid, PP. 170-171.

(2) Butler, Rex: ***Slavoj Žižek: Live Theory***, London: Continuum, 2005, P. 10.

(3) Wells, Charles H.: "***The Subject of Liberation: Confronting Slavoj Žižek***", *Ph. D. Dissertation in Philosophy*, York University, Toronto, Ontario, 2010, P. 32.

"المتنفس الأيديولوجي" الذي تعمل الأيديولوجيا من خلاله على الحيلولة دون تهديدها أو تقويضها، وعلى حدّ قوله: «إن هذا النوع من النشاط هو الشكل **التام للسلبية الذاتية (المعرفية، والعاطفية) (Interpassivity)**؛ لأن ثماره ليس لها مردود حقيقي على الواقع، وإنما لمنع حدوث شيء معين، ومن ثَمَّ فهو يَحول- بطريقة أو بأخرى- دون وقوع التغيير الجذري. وفي النتيجة نجد أن حملات البِرّ والإحسان، وتلك الأفعال الصائبة- أو على الأدق المسموح بها سياسيًا- تلائم الصيغة التي تقول: "**هَلُمَّ بنا نقوم بالتغيير طوال الوقت، ما دامت الأمور ستَبقَى على الصعيد العالمي على حالها**"!(١).

معنى هذا أن أول ما ينبغي القيام به هو عدم التسرع أو الاندفاع وراء الفعل الثوري؛ لأن ذلك سينتهي بنا إلى طريق مسدود، أو على الأقل سيقودنا إلى حالة من العجز **(وإلا فماذا يمكن أن نفعل أمام سطوة الرأسمالية وهيمنتها التي تزداد يومًا بعد يوم؟)**، بل إن مهمة الفلاسفة تتمثل أساسًا في إعادة تصحيح إدراك الأفراد لواقعهم، ووضع النظم والمعطيات الأيديولوجية المهيمنة موضع المسألة، محاولين الإجابة عن التساؤل الأكثر أهمية: "ماذا ينبغي علينا أن نفعل لتغيير العالم؟"(٢).

يحاول جيجيك إذن تعديل المقولة الماركسية حول التغيير الثوري بطريقة التدخل المباشر: **فإذا كان الفلاسفة اهتموا بتفسير العالم، وقد اختلفوا في ذلك، ثم جاء ماركس مؤكدًا أن الضرورة تُحتِّم تغييره، فإن سطوة الرأسمالية التي تُعيد إنتاج نفسها كل وقت، إضافة إلى إخفاق التجارب الاشتراكية في القرن العشرين، كل هذا يقود إلى ضرورة مراجعة نظرياتنا الثورية. وهو الأمر الذي يَفرِض علينا إعادة النظر في إجابة السؤال: من أين نبدأ؟ ومن أجل هذا يجب أن نقف بدقة على أسباب إخفاق الثورات المعاصرة، وآخرها ثورات الربيع العربي، رغم الإمكانات الذاتية الخلاَّقة التي انطلقت منها.**

من ناحية أخرى يؤكد جيجيك على ضرورة عدم الوقوع في وهم انتصار الثورة، أو الإفراط في الافتتان باللحظات السّامية للوحدة الوطنية؛ حيث إن السؤال الأهم: **ماذا سيحدث بعد انتهاء الثورة؟ وكيف يمكن ترجمة هذه اللحظات الثورية إلى نظام اجتماعي جديد؟**(٣).

(**1**) Žižek: "***Lenin's Choice***", P. 170.

(**2**) Žižek: ***The Universal Exception***, P. 238.

(**3**) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 74.

هذا يعني أن المهم في رأي جيجيك هو **كيفية تحويل الوضعية الانفجارية للثورة إلى طاقات فاعلة للتحرر بعد سقوط النظام**. ولهذا فهو يُعبِّر عن هذا المعنى العميق، ومُقدِّمًا توصيفًا فلسفيًا للسمات التي تميَّزت بها الانتفاضات الثورية الأخيرة في العالم العربي، وذلك على النحو الآتي:

«ينبغي الوقوف على الأسباب الحقيقية لإخفاق الحركات الثورية، والنتائج السلبية التي خلَّفَتها. وبالنسبة لليسار اليوم، فقد عادت مشكلة "**النفي المتعيِّن**" (Determinate Negation) للواقع، لكن بطريقة الانتقام. ومن أجل هذا ينبغي أن نركز على ماهية النظام الجديد الذي يجب أن يحل محل النظام القديم، خاصة بعد تراجع الحماسة المشتعلة والسامية للانتفاضات الثورية العربية. **وإنَّ وجه القصور، القاتل، في هذه الانتفاضات يتمثل في كونها لا تتعدى تعبيرًا عن غضبٍ حقيقي دون أن تكون قادرة على تحويل نفسها إلى برنامج إيجابي للتغيير؛ الأمر الذي يجعلها تجسيدًا لروح ثورية دون أن تكون هي نفسها ثورة بالمعنى الواسع والمفتوح للكلمة**»[1].

من هذا المنطلق فإنه من الأهمية التحرر من هيمنة الأيديولوجيا الحاكمة، وتصحيح إدراك الأفراد لمسار عملها وتحولاتها الجديدة في ظل تطور التكنولوجيا، خاصة عملية صنع الصور. وهنا يُقارب جيجيك مسار الثورة المصرية في يناير ٢٠١١، حيث يرى أنها وإنْ كانت حركة احتجاجية ضد توحش الرأسمالية، واستبداد النظام الحاكم، فإنها كانت في الواقع صراعًا من جانب الطبقة البرجوازية المستأجَرة ضد النظام، واحتجاجًا منها على التآكل التدريجي لأوضاعها بسبب تأثير السوق في أجرها، وخوفها من أن تعود إلى الحد الأدنى من الأجر؛ وهو ما تَمثَّل في صعود فئة قليلة جدًا منها إلى مستوى أعلى لأصحاب الوظائف ذات الامتيازات مثل مديري شركات القطاع العام، والمفتشين، وغيرهم، وهبوط فئات كبيرة منها إلى طبقة الفقراء، والعاطلين، والعمال الكادحين. ولذلك **لم تكن هذه التظاهرات تعكس في الحقيقة احتجاجات الطبقة العاملة، بل إن هذه الطبقة لم تَعُدْ أصلًا قادرة على الإضراب والاحتجاج؛ نظرًا لخوفها من فقدان وظيفتها، حيث أصبح الأمن الذي توفره الوظيفة الثابتة- بحد ذاته- امتيازًا**[2].

---

(1) Ibid, P. 78.

(2) Ibid, P. 11.

يقودنا هذا إلى ضرورة الاستفادة من فشل اليسار حتى لا نقف عاجزين أمام سطوة الرأسمالية، خاصة في ظل الانتقاص الليبرالي من قدر التغيير الثوري وأهميته، ويؤكد جيجيك على ذلك بقوله: «يتعيَّن علينا إعادة دراسة الأسباب التي أدت إلى إخفاق الحركات الثورية الكبرى (مثل اليعقوبية، واللينينية، والستالينية، والماوية)؛ وذلك حتى نتمكَّن من استرداد الإمكانات والعناصر التحررية في هذه الحركات، ونتجنب الوقوع في وهم العيش في تجارب ماضية»[1].

من هنا فإن جيجيك- على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن- لا يريد العودة إلى تجارب ثورية، أو العيش في يوتوبيات قديمة، لكنه يستهدف أساسًا استعادة الدوافع الثورية نفسها التي دفعت هذه الحركات نحو التغيير. وقد أكد جيجيك على هذا المعنى لتفادي الوقوع في أَسْر اليوتوبيات، قائلًا:

«لا يُمثِّل "لينين" مجرّد اسم للحنين إلى اليقين الدوجماطيقي القديم، على العكس من ذلك؛ فإن لينين الذي يجب استلهامه هو "لينين الموضوع في حالة صيرورة" (Lenin-in-becoming). إن لينين المقصود هو ذلك الشخص الذي وجد نفسه وسط وضع كارثي فقدت فيه الإحداثيات الأيديولوجية القديمة صلاحيتها، وأصبحت عديمة الجدوى؛ الأمر الذي دفعه إلى **إعادة تطوير الماركسية من جديد(...)** ولهذا **فإن دعوتنا للعودة إلى لينين لا تتمثل في العودة إليه كتجربة ماضوية، وإنما تعني تكراره بالمعنى الكيركيجاردي؛ أي باستعادة الدوافع ذاتها التي حرَّكته ودفعته إلى التغيير. ومن ثَمَّ فإن هذه العودة لا تستهدف إعادة تمثُّل "الأحوال الثورية القديمة"، كما لا تستهدف التكييف الانتهازي لبرنامجه الثوري مع شروط الواقع الجديدة، بل تستهدف تكرار حركته إلى التغيير في ظل الظروف الحالية؛ لإبداع مشروع ثوري جديد في ضوء المشكلات والأزمات الكبرى التي تسبَّبت فيها الرأسمالية العالمية، والإمبريالية الأمريكية، والاستعمار بشكله الجديد»**[2].

وانطلاقًا من ضرورة استلهام الروح الثورية من التجارب السابقة، **يذهب جيجيك إلى أن الإحياء العظيم للتظاهرات والاحتجاجات الأخيرة- من الربيع العربي إلى أوروبا الغربية، ومن حركة «احتلوا وول ستريت» إلى الصّين، ومن إسبانيا إلى اليونان- إن هذا الإحياء للتظاهرات يتعيَّن النظر إليه على أنه يَحمل إمكانات راديكالية أكبر، ولا يجب أن ننظر إلى**

---

(1) Žižek: ***In Defense of Lost Causes***, P. 3.

(2) Žižek, Slavoj: "***Introduction: Between the Two Revolutions***", in: *Vladimir Lenin, Revolution at the Gates*, op. cit., P. 11.

هذه التظاهرات على أنها مجرّد انتفاضات من جانب البرجوازيات المستأجَرة. وعلى سبيل المثال، فبالنسبة للثورة في مصر، ورغم أنها كانت رد فعل حقيقي لبقايا الطبقة الوسطى وصرخات الطبقة الكادحة، ورغم أنها بدأت في شكل تمرد من جانب بعض الفئات البرجوازية المستأجَرة (حيث تظاهر الشباب والمتعلمون احتجاجًا على المستقبل المشئوم الذي ينتظرهم)، فإنها سرعان ما أصبحت جزءًا من احتجاج أكبر وشامل ضد النظام[1].

من هنا يؤكد جيجيك على أهمية الاستفادة من التجارب الثورية، واستلهام الدوافع الخلاَّقة، كما يؤكد أن التغيير الجذري في الوقت الراهن أصبح ضرورة. لكن ما ينقصنا ليس هو الحركة الثورية ذاتها، وإنما استلهام الدوافع الثورية ذاتها لضرورة التغيير. **ومن ثَمَّ، فإن جيجيك لا يريد للشعوب الغربية والعربية أن تقف مكتوفة الأيدي أمام سطوة الرأسمالية، أو أن ترضخ لشروطها الكونية؛ لأنها هي أساس كل أشكال الاستغلال الذي قد يُفضي إلى التطرف؛ حيث إنها لم تَعُدْ تتميَّز بطابعها الاستغلالي فقط- كما أوضح ماركس- وإنما أضحت تتميَّز كذلك بنزوعها غير المباشر إلى الاضطهاد، نظرًا لما تُسبِّبه من صراعات ومشكلات اجتماعية وما تنتجه من عنف.**

وإذا كان العنف الاجتماعي- وفقًا لتحليل جيجيك- ردّة فعل تجاه العنف الكامن في بنية الرأسمالية، وتقوم الليبرالية- كما رأينا- بالتعمية عن أصول هذا النوع من العنف، فإن جيجيك في المقابل يذهب إلى أن هذا العنف يحتاج لتربة رأسمالية خصبة يُوَّلد فيها، وكل فاشية دينية أو علمانية تُمثِّل انعكاسًا حتميًا وأثرًا طبيعيًا لفشل الثورة. هكذا يرى جيجيك مقتبسًا مقولة "فالتر بنيامين" التي مفادها: «**إن كل صعود للفاشية يشهد على وجود ثورة فاشلة**». ويقارب من خلال هذه المقولة التقلُّبات الأخيرة لليمين المتطرّف في أوروبا؛ حيث يذهب إلى أن صعوده جاء نتيجة لفشل اليسار، لكنه في الوقت نفسه دليل على أن هناك إمكانات ثورية لم يتمكن اليسار نفسه مِنْ حُسْن استغلالها. وينطبق الأمر كذلك على الإسلام السياسي- أو ما يُسمى "بالفاشية الإسلامية"- حيث كان صعوده بعد ثورات الربيع العربي الوجه الآخر لغياب اليسار العلماني[2].

إن غياب أي بنية تنظيمية لليسار تقف في وجه القوى الفاشية والدينية المحافظة يُمثِّل نقطة ضعف مركزية في أية ثورة، ولا يبدأ اليسار في إدراك ذلك في العادة إلا في

---

(1) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 12.

(2) Ibid, P. 73.

الآونة الأخيرة من الثورة. ومن جانب آخر، فإذا كانت الليبرالية تشترك مع اليسار في السعي للتحرر من النظام القمعي (لأن هذا النظام يُمثِّل بالنسبة لهما العدو المشترك)، فإن ثَمَّة ضرورة للتكاتف بين الاثنين.

تأسيسًا على ذلك، فإن نجاح الفاشية وصعود اليمين الديني أكبر دليل على إخفاق اليسار على أرض الواقع؛ فالتباطؤ في التحول الجذري- خاصة بعد سقوط النظام القمعي- من شأنه أن يَدفع إلى عودة الحركات الفاشية، والأصوليات الدينية وبشكل أكثر ضراوة. ولذلك يستطرد جيجيك قائلًا: «**إن الانتصار الانتخابي للإسلاميين في مصر وتونس يؤكد بؤس التيارات اليسارية الموجودة في البلدين، كما يؤكد محدودية وضعف القاعدة الاجتماعية لليسار العلماني؛ والدليل على ذلك أن الحركة الاحتجاجية التي أطاحت بمبارك جاءت في الأساس من تظاهرات الطبقة الوسطى المتعلمة، ولم يشارك فيها سوى نسبة ضعيفة من الفلاحين والعمال**»[1].

ونظرًا لأهمية وجود الروح الثورية لمواجهة الرأسمالية، فإن العنف الثوري- في نظر جيجيك- لا يستمد أهميته من كونه وسيلة للتغيير فقط، بل أيضًا كآلية يمكن من خلالها مواجهة النقد الليبرالي للثورة، والاستخفاف بأهمية وضرورة التغيير ذاته، وعلى حد تعبيره: «**اليوم، يحتاج اليسار أكثر من أي وقت مضى إلى جرعة من العنف الثوري لدى لينين، وكذلك جرعة من الإرهاب الثوري عند اليعاقبة**»[2].

من هنا يذهب جيجيك إلى أن ثَمَّة ضرورة لإحداث نوع من التوافق بين القوى الليبرالية المعتدلة واليسار العلماني، كما يذهب أيضًا إلى أن ثَمَّة ضرورة لاحتواء اليسار للقوى الشعبية حتى لا يتم الزَجّ بها في غياهب القوى الدينية. ومن الجدير بالذكر أن جيجيك كثيرًا ما كان يؤكد فور سقوط نظام مبارك- وقبيل وصول الإخوان المسلمين إلى الحكم- على ضرورة إحداث هذا النوع من التوافق بين القوى الليبرالية واليسار، وعلى حدّ قوله: «**إن الدرس الأكثر أهمية بالنسبة للثورة المصرية مفاده إنه إذا استمر الليبراليون في تجاهلهم لليسار، فإن ذلك من شأنه أن يُوَلِّد موجة قوية من المد الأصولي لتيار الإسلام السياسي، الذي سيرفع رايته كممثل وحيد للفقراء والمضطهَدين، وكبديل جديد للتحرر من الرأسمالية المنفلتة**»[3].

(**1**) Ibid, P. 12.

(**2**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 125.

(**3**) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, PP. 73-74.

لهذا السبب وفي تحليله لردة فعل الغرب تجاه ثورات الربيع العربي، ينتقد جيجيك مزاعم الليبراليين الغربيين التي تَدَّعِي أن الحس الديموقراطي في هذه البلدان مقتصرٌ على النخبة الليبرالية، ويشير إلى أن أكثر ردود الفعل الانتهازية هو رد "**توني بلير**" الذي جاء فيه: «**إن التغيير في مصر ضروري، لكن يجب أن يكون تغييرًا متزنًا**». إن التغيير المتزن لا يعني– وفق هذا المنطوق الأيديولوجي– سوى المساومة مع نظام مبارك؛ أي الوصول إلى نوع من التسوية بحيث يتم التضحية بمبارك نفسه، مع توسيع دائرة الحكم السياسي قليلًا. ولذلك يستطرد جيجيك مؤكدًا: «**إن النفاق السياسي لليبراليين الغربيين يتكشّف في رؤاهم الأيديولوجية المخزية والمُثِيرة للازدراء؛ حيث يتشدّقون بالحرية، والديمقراطية ويروجون لها في العلن، لكنهم عندما وجدوا الشعوب العربية تثور ضد الطغاة تحت راية الحرية والعدالة، وقيم المدنية، وليس باسم الدين، أصبحوا قلقين للغاية. فلماذا القلق إذن؟ ولماذا لم يفرحوا لكون الحرية نالت فرصتها، وأخذت مكانها الطبيعي؟**»[1].

ويمضي جيجيك فيُحلِّل الأيديولوجيا الليبرالية التي تجتاح العالم في الوقت الراهن، مُتهِمًا إياها بتزييف إدراك الأفراد لطبيعة النظام الرأسمالي الذي لا يزال متحكمًا، بالطريقة نفسها التي تزيف بها الكنيسة الكاثوليكية التاريخ عندما قدمت نفسها على أنها المدافع "الطبيعي" عن الديمقراطية، وحقوق الإنسان ضد تهديدات الأنظمة الشمولية، في حين أنها كانت– حتى فترة قريبة من نهاية القرن التاسع عشر– النصير الأيديولوجي والديني الأبرز للأنظمة المَلكية[2]!

كذلك يكشف جيجيك عن التواطؤ بين الليبراليين الغربيين والإسلاميين بعد ثورات الربيع العربي، إذ إن الليبراليين وبإقصائهم لليسار يساهمون– على نحوٍ غير مباشر– في انبثاق العنف الاجتماعي. ومن خلال ذلك، يقارب جيجيك **نزوع الليبراليين في كلٍّ مِنْ مصر وتونس لإقصاء اليسار من الساحة السياسية، بالإضافة إلى محاولاتهم لحصر مطالب الثورة في مجرّد الديمقراطية، وقيام الحريات السياسية، مؤكدًا أن ذلك من شأنه أن يفتح الباب لتسلُّل الأصولية الدينية، مثلما أن تفاقم الوضع الاقتصادي من شأنه أن يَدفع الملايين من الفقراء إلى الشارع عاجلًا أم آجلًا، وهي الملايين التي لم تشارك في هذه الانتفاضات، التي كانت تسيطر عليها– في بدايتها على الأقل– الطبقة الوسطى المتعلمة.** وهذا الانفجار الجديد سيكرِّر انفجارات الربيع العربي، وسيُجبر الجميع على الإدراك الصحيح

(**1**) Ibid, P. 73.

(**2**) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 39.

لحقيقة ما يجري على أرض الواقع، وسيفرض عليهم اختيارًا صعبًا يتمثل في: مَنْ الذي سيحتوي غضب الفقراء، ويترجمه إلى برنامج سياسي؛ اليسار العلماني الجديد، أم الإسلاميون؟[١].

نستنتج مما سبق، أن جيجيك يؤكد في المقابل على ضرورة التفكير النقدي في بنية الأنظمة الأيديولوجية من أجل فهم الآليات التي تشتغل عليها، والكشف عن سر قوتها، وذلك كبداية أولى للشروع في أي محاولة للتغيير الجذري. وهنا نلاحظ أن مقولة جيجيك التي مفادها إن التغيير الثوري غير المدروس لن يكون إلا تغييرًا مُشَوَّهًا في كثير من الحالات، إن هذه المقولة تُدلِّل على اختلافه- نسبيًا- مع ماركس، الذي ذهب إلى أن البروليتاريا (طبقة العمال الصناعيين) هي القوة الاجتماعية القادرة على تحقيق التغيير الثوري، وإسقاط المجتمع البرجوازي القائم، وهدم علاقات الإنتاج بوسائل العنف، وتجسيد آمال البشرية في مستقبلٍ أفضلٍ، ومن ثَمَّ يتعيَّن عليها توحيد صفها وتنظيم نفسها[٢].

كذلك فإن اعتقاد جيجيك بأن أي فعل ثوري ينبغي أن يتحرر من هيمنة الأيديولوجيا الحاكمة، يلتقي فيه مع «هربرت ماركوزه»، الذي ذهب إلى أن البروليتاريا فَقَدت ثوريتها الحقيقية بانصياعها لمنظومة السوق الحر، واندماجها في النظام الصناعي في البلدان الرأسمالية إلى حد أصبحت فيه تَحرِصُ على بقاء هذا النظام، وتُحَافِظ على طَابعِه الاستغلالي؛ الأمر الذي يجعل منها طبقة ثورية بذاتها لا لذاتها، ولهذا فإن دفعها نحو التغيير أصبح متوقفًا على عدة عوامل خارجة عنها[٣].

(ب) نحو ثورة شاملة:

إذا كان البعد الأيديولوجي للماركسية هو أساس نظرية العنف الثوري الذي يتجه إلى أقصى حد ممكن له، فإن جيجيك لا يرى الثورة مجرّد أحلام أو رؤى يوتوبية، كما لا يقع تحت إغراءات الليبرالية ذات النزوع البراجماتي والتي تقول بأنه بإمكاننا حل المشكلات تدريجيًا واحدة تلو الأخرى، دون اللجوء إلى التغيير الجذري. يزعم الليبراليون عن طريق أنه إذا كان الآلاف من الناس يموتون كل يوم في رواند وغيرها من البلاد، فإن علينا أن ننسى الثورة، والكفاح ضد الإمبريالية، وأن نركز فقط على منع المجازر من أن تقع، وأن نحارب الفقر والعنصرية هنا والآن، بدلًا من أن ننتظر انهيار النظام الرأسمالي[٤].

---

(1) Žižek: ***The Year of Dreaming Dangerously***, P. 75.

(٢) ماركس، كارل، وفريدريك إنجلس: «**بيان الحزب الشيوعي**»، ضمن: ماركس وإنجلس، مختارات في أربعة أجزاء، الجزء الأول، ترجمة: إلياس شاهين، موسكو: دار التقدم، د. ت، ص. ٧٨.

(٣) ماركوزه، هربرت: **نحو ثورة جديدة**، ترجمة: عبد اللطيف شرارة، بيروت: دار العودة، ١٩٧١، ص. ٩٢.

(4) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, P. 77.

لكن الثورة عند جيجيك تَبقَى هي الأساس، وما عداها من الإصلاحات لا يمكن أن تكون لها قيمة تُذكر أو آثار ملموسة في التغيير. وبوجه عام، فإن جيجيك يسير على الخط نفسه الذي سلكه الماركسيون في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والذين هاجموا "**الديمقراطيين الاجتماعيين**"، وذهبوا إلى أن دعواتهم للإصلاح التدريجي مآلها الفشل؛ لأنها تستهدف تحسين نظام سيء، فيما يجب علينا تدمير النظام كلية.

من هنا فإن **جيجيك يصل في نهاية المطاف إلى ضرورة الثورة، التي تتجسَّد فيها العدالة والحرية**. والحرية عنده تعني القدرة على تجاوز معطيات الوضع القائم، وتأسيس جملة الشروط والأحوال التي يكون فيها الأفراد فاعلين، وليسوا مجرد أدوات في يد السلطة الحاكمة. ولذلك فإن نظرته للثورة ليست ذات طبيعة عدمية؛ لأن المكون الرئيس لها، والذي يفصلها عن مجرد التخريب والتدمير، يتمثل في تحويل الطاقة الثورية إلى نظام يكفل بناء مؤسسات جديدة بَدِيلة عن المؤسّسات القديمة. ولا يُمكِّننا القول إننا بإزاء ثورة حقيقية إلا عندما تنجح في تحقيق أهدافها(١).

وهنا نلاحظ تأثر جيجيك بمفهوم هيجل للحرية؛ حيث تستلزم الحرية عند الأخير قدرة الأفراد على التمتع بنظام مستقل بهم؛ أي قدرتهم على "التحديد الذاتي" (Self–Determination) من دون أي تدخلات خارجية. وكذلك تستلزم الحرية عند جيجيك تجاوز المعوقات الطبيعية والحاجات النفسية لدى الأفراد؛ الأمر الذي يجعل إمكانية تحقيقها ترتبط بمدى أداء سلوك الأفراد بالتحفيز الداخلي واختياراتهم الذاتية(٢). ومن ناحية أخرى نلاحظ تأثر جيجيك بنظرة ماركس للحرية على أنها تتجسَّد في العلاقات الاجتماعية، وأن تحقيقها يتم عن طريق التحوّل الجذري لبنى المجتمع، وأولها نمط الإنتاج البرجوازي القائم، والعلاقات الاجتماعية التي تمتدّ من مكان العمل حتى نظام الأسرة(٣).

معنى هذا أن الثورة لتحطيم النظام الرأسمالي هي المدخل الحقيقي للمجتمع العادل والتحرر الشامل في رأي جيجيك. وفي تشبيه آخر، فإن الثورة مثل اللص الذي يأتي في

---

(1) Bjerre and Laustsen: ***The Subject of Politics: Slavoj Žižek's Political Philosophy***, P. 91.

(2) Marques, Victor: "***"Positing the Presuppositions: Dialectical Biology and the Minimal Structure of Life"***", in: Hamza, Agon & Ruda, Frank (eds.), *Slavoj Žižek and Dialectical Materialism*, Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2016, P. 115.

(٣) ماركس، وإنجلس: «**بيان الحزب الشيوعي**»، ص. ص. ٥٠، ٧٤، ٧٩.

الليل، وإذا كانت ثَمَّة سرقة مشروعة للرأسمالية، فإن السارق يحتاج إلى أن يتسلح ببعض الأدوات[١]. ويُعبِّر «**آلان جونسون**» (Alan Johnson) عن ذلك بقوله: «إن الثورة عنده تُمثِّل لحظة إلهام لاتحاد الإرادة الجماعية، وهو اتحاد ذو طابع سحري، حتى وإن تكلفت المزيد من الدماء، على نحو ما فعله الحرس الأحمر لماو تسي تونغ الذي قتل نصف مليون شخص أثناء الثورة الثقافية»[٢].

ومن الملاحظ أن تأكيد جيجيك على ضرورة الثورة الاشتراكية ضد الرأسمالية ومفاسدها يجعله يلتقي مع «جورج سُورِيلْ»، الذي أكد على الغاية الأخلاقية للاشتراكية، وأعطى للعنف دورًا حاسمًا في الثورة، معتبرًا إياه ضرورة تاريخية تكتسب دلالتها من خلال تفجُّر العداوات والخصومات[٣]. ولهذا فقد استبدل سوريل فكرة الأزمة الأخلاقية التي تواجه المجتمعات البرجوازية بالفكرة الماركسية المتمثلة في الأزمة الاقتصادية التي تواجه الرأسمالية. وهو يرى الاشتراكية نظامًا أخلاقيًا؛ بمعنى أنها تحوي في طيَّاتها طريقة جديدة للحكم على الأفعال الإنسانية، وعلى حدّ تعبيره: "تقييم جديد لكل القيم"[٤].

لكن إذا كان سوريل آمن بضرورة الثورة، فإنه أعلى من شأن الأسطورة في التمرد على الأوضاع القائمة، كأداة من أدوات النضال الثوري ضد البرجوازية. وبالتقابل مع هذا التوظيف السياسي للأسطورة، نزع جيجيك إلى القول بضرورة تنظيم الشعوب بنفسها، وأن الثورة تجيز نفسها بنفسها؛ لأن ذلك هو المدخل الأبقى لتأسيس مجتمعات عادلة. ومن ثَمَّ فإن الأمل الوحيد للتغيير هو مواجهة كل أشكال تزييف الإدراك التي تزداد يومًا بعد يوم في ظل توحش الرأسمالية العالمية.

إن القيمة الجوهرية للفعل الثوري تنبع من كونه تعبيرًا رمزيًا عن أخلاق التمرد ضد الرأسمالية. كما أن هذا الفعل لا يتأتَّى عن طريق أسطورة الكفاح؛ إنما الثورة الحقيقية عند جيجيك وليدة إرادة الشعوب وحدها، وهو ما يجعل منه– وفق ما يرى «**إيفرت فان دير زويرده**» (Evert Van Der Zweerde)– مفكرًا راديكاليًّا ما بعد ماركسي ومناهضًا

(**1**) Smith, Neil: "***The Revolutionary Imperative***", P. 64.

(**2**) Johnson, Alan: "***Slavoj Žižek's Theory of Revolution: A Critique***", in: Johnson, Matthew (ed.), *The Legacy of Marxism: Contemporary Challenges, Conflicts, and Developments*, London: Continuum, 2012, P. 47.

(**٣**) الجزيري، د/ محمد مجدي: **العنف والتاريخ عند سوريل**، القاهرة: دار الصافي للطباعة والنشر، ١٩٩١، ص.٧٢.

(**4**) Sorel, Georges: ***Reflections on Violence***, PP. viii, 117.

للرأسمالية على نحو قاطع[١]. ومن ناحية أخرى يذهب «**إيان باركر**» (Ian Parker) إلى أن محاولته استرجاع العناصر الثورية في الماركسية شكَّلت أهم دوافعه لتطوير نظرية خاصة في الأيديولوجيا. وقد كان في ذلك مخلصًا لأفكار لينين التي عَدَّت العداوة للرأسمالية موقفًا أخلاقيًا[٢].

وعلى الرغم من انطلاق جيجيك من جوهر الفكرة الماركسية للثورة، فإن ذلك لم يمنعه من نقد التجارب الاشتراكية والشيوعية في القرن العشرين. ولا شك أن بؤس اليسار المعاصر، وهو ما يتجلَّى في غياب أيّ برنامج بديل، بل مجرّد رفض الرأسمالية، ونقد مكاسبها الاقتصادية والاجتماعية، هو الذي أدى إلى نمو وازدهار الرأسمالية، وإعادة خلق نفسها من جديد، لكن في شكل أكثر استبدادًا هذه المرة، وهو ما نجده في بلدان مثل الصّين، وكوريا الجنوبية، واليابان، وسنغافورة. ففي هذا الشكل الجديد للرأسمالية يتخذ المجتمع المدني طابعًا رأسماليًا، ولكنه واقع في الأساس تحت سيطرة دولة سلطوية عن طريق موظفين عموميين هم في الحقيقة أقرب ما يكونوا إلى أرباب العمل[٣].

في المقابل يذهب جيجيك إلى أنه بالنظر إلى العيوب المتأصلة في هذين النموذجين: («الرأسمالية الغربية المطلقة العنان»، والتي لا حدود لها، ولكنها قد تُبقي على حد أدنى من التضامن الاجتماعي، و«الرأسمالية بقيم آسيوية»، والتي تزعم قدرتها على التناغم مع القيم المجتمعية التقليدية)- إنه بالنظر إلى العيوب المتأصلة في هذين النموذجين، يتعيَّن علينا تجاوزهما، مع ضرورة الاستفادة من إخفاقات اليسار التقليدي، وضخ دماء جديدة فيه؛ حتى نستطيع القيام بالفعل الملموس، مستلهمين في ذلك ثورة أكتوبر والروح الثورية لدى لينين، ومستدعين فكرة «أنطونيو نيجري» (Antonio Negri) (١٩٣٣-...؟) حول «المشاعات» "Commons" التي تقوم بدور فعّال في المجال الاجتماعي، وهي مشاعات مهددة دائمًا بالتلوث والاستغلال في ظل الرأسمالية، ومستندين أيضًا إلى أطروحة «آلان باديو» التي مفادها: "إن الفرضية الشيوعية تَبقَى صحيحة لعالم ممكن آخر، والأفق الذي لا ينبغي تجاوزه. أما إذا حاولنا تجاوزها، فلن يكون هناك أي عمل يستحق منا القيام

---

(1) Van Der Zweerde, Evert: "***The Many Faces of Slavoj Žižek's Radicalism***", *Studies in East European Thought*, Vol. 56, No. 4, (Dec., 2004), P. 252.

(2) Parker, Ian: ***Slavoj Žižek: A Critical Introduction***, London: Pluto Press, 2004, P.83.

(3) Žižek: ***First as Tragedy, Then as Farce***, PP. 131-138, 148.

بـه". ويضـيف جيجيك إلـى ذلك: "إنـه مـن دون النظـرة الشـيوعية، والفكـرة الشـيوعية هذه، لـن يوجـد أي شـيء فـي المسـتقبل السياسـي والتـاريخي مـن شـأنه أن يشـغل تفكيـر الفيلسـوف واهتماماته الجوهرية"[١].

نستنتج من ذلك أن جيجيك يُعوِّل على الثورة كسبيل للتحرر، ويؤكد «مارك دي كيسيل» (Marc De Kesel) على ذلك بقوله: «حاول جيجيك تطوير النظرية الماركسية؛ لأنها تُمثِّل في نظره الأساس الوحيد الذي لا غنى عنه لنقد الرأسمالية والثورة عليها»[٢].

لكن المُنظِّر الأمريكي «روبرت ساموبلز»[٣] (Robert Samuels)– من بين آخرين– يذهب إلى أنه على الرغم مما يَبدُو من أن جيجيك يطرح آليات جديدة لنقد الرأسمالية، فإن أفكاره ليست لها تأثير إلا التأثير الظاهري، كما أن كتاباته تَصُبّ في اتجاه تشتيت فكر اليسار أمام هيمنتها من جهة، وتُضعف رغبة المفكرين اليساريين في المشاركة في التغيير الملموس من جهة ثانية. وحجة «ساموبلز» في ذلك أن ردود فعل جيجيك ضد الليبراليين ومفكري الاتجاه النقدي لمدرسة فرانكفورت، وكذلك هجومه على الرأسمالية، تنبع من رغبته لتمييز نفسه عن المفكرين اليساريين، كما تعكس تشبُّثه بالنظرية الماركسية عن الثورة الشاملة التي تستهدف تعميق مفاهيم يوتوبيا العدالة والتحرر. ولذلك فهو يَبدُو وكأنه يعتقد أن الإطاحة التامة بالرأسمالية مآلها الفاشل، أو هي على الأرجح غير قابلة للتحقق، ومن ثَمَّ يجب علينا نقدها بدلًا من الانخراط في أية مشروعات للتغيير الجذري.

وفيما يَبدُو لنا، إن هذه القراءة تُمثِّل مغالطة لأفكار جيجيك، وإجحافًا في حقه. فمع الإقرار بأن جيجيك لم يقدم حلولًا قوية لمكافحة الرأسمالية، أو منهجًا واضح المعالم للتحول إلى الشيوعية، فإن ذلك لا يعني رضوخه للمنظومة الرأسمالية العالمية؛ على العكس من ذلك فإن تركيزه ينصبّ على نقد بنيتها الليبرالية التي أفرزت الكثير من الأصوليات السياسية والدينية، وهو لم يتردد في القول بأن الرأسمالية تحوي في طيَّاتها عوامل فنائها التي تمنعها من الاستمرار في البقاء.

---

(1) Ibid, PP. 87-88.

(2) De Kesel, Marc: "***Act without Denial: Slavoj Žižek on Totalitarianism, Revolution and Political Act***", *Studies in East European Thought*, Vol. 56, No. 4, (Dec., 2004), P. 317.

(3) Samuels, Robert: ***New Media, Cultural Studies, and Critical Theory after Postmodernism: Automodernity from Žižek to Laclau***, New York: Palgrave Macmillan, 2009, P. 69.

وفي اعتقادي أن ما يَعيب جيجيك هو عدم تحديده البدائل للنظام الرأسمالي، وإذا كان البديل في نظره يتمثل في الشيوعية، فإن التساؤل الذي يظل يطرح نفسه: **لماذا الشيوعية على وجه التحديد؟ هل بسبب ما تُمثِّله من انتفاء للاستغلال، وتدعيم قيم التحرر، والعدالة الاجتماعية، والمساواة؟ أم لأسباب أخرى تُضاف إلى ذلك؟** وإذا سلمنا معه بعدالة القضية الشيوعية، فإن التساؤل الأكثر أهمية: **كيف يُمكِّننا- في ظل توحش الرأسمالية وسيطرتها- الانتقال إلى الثورة، ثُم إلى الشيوعية؟**

لهذا السبب يشير «**كولين دافيس**» (Colin Davis) إلى أن أفكار جيجيك تضعنا مباشرة في صلب الأزمة الكامنة في الرأسمالية، لكنها لا تُقدِّم لنا بديلًا محدد المعالم لكيفية حلها أو تجاوزها. وعلاوة على ذلك فهو يتحدث عن الشيوعية كما لو كانت الحقيقة المطلقة والنهائية[١]. إن هذا الوصف صحيح- نسبيًا- رغم أنه ينطوي على سخرية من جيجيك. فجيجيك لم يُحدِّد بشكل واضح طبيعة النظام الاقتصادي، وشكل المؤسّسات في المجتمع المثالي الذي يتصوَّره. وعلاوة على ذلك فإن إيمانه بالشيوعية، وتعويله على التغيير الجذري، كل هذا بحاجة إلى المزيد من التدقيق والإيضاح.

إذن يتضح لنا أن القول بأن جيجيك مجرّد مُحرِّض فكري استفزازي، يُمثِّل سوء فهم وتحريف لأفكاره أكثر منه قراءة موضوعية؛ فكتاباته تكشف بوضوح عن أزمات الرأسمالية التي تُعَدُّ البيئة الخصبة لنمو الإرهاب والعنف. أما **الزعم بأن فكره لا يستهدف سوى نقد الرأسمالية، أو ترميمها، فيُمثِّل مغالطة، بل وتفسيرًا يَمِينيًا محافظًا يفتقر إلى أدنى مستويات الإقناع؛ لأن جيجيك يُعلِّق أمالًا كبيرة على الثورات الاشتراكية العالمية، على نحو يذكرنا بلينين.** والثورة عنده هي المدخل الوحيد القادر على بناء نظام اجتماعي جديد، وهي رؤية أقرب إلى اليوتوبيا- وفق ما يرى «توماس بروكلمان»- تتقاطع مع فكرة "الثورة النهائية" عند "فالتر بنيامين"، وتُخلص في الوقت نفسه للنموذج الماركسي اللينيني حول أسطورة العمل الاجتماعي المشترك، وهو العمل الإنساني المُنتِج[٢].

---

(1) Davis, Colin: ***Critical Excess: Overreading in Derrida, Deleuze, Levinas, Žižek and Cavell***, Stanford, CA: Stanford Univ. Press, 2010, P. 133.

(2) Brockelman, Thomas: ***Žižek and Heidegger: The Question Concerning Techno-Capitalism***, London & New York: Continuum, 2008, P. 118.

نتائج البحث

عرضنا في هذا البحث لمسار العلاقة بين الأيديولوجيا والثورة عند جيجيك، من خلال تحليل طبيعة الأيديولوجيا، والبنى التي ترتكز عليها، والخصائص التي تتَّسم بها، والآليات التي تشتغل من خلالها. أما بخصوص نتائج البحث، فإن النتائجَ الجزئية جاءت موزعة على صفحات البحث، لذا نورد هنا أهمَ نتائجه العامة على النحو الآتي:

أولًا: لقد **استطاع جيجيك أن يُقدِّم صورة متكاملة حول ماهية الأيديولوجيا، وطبيعتها، وخريطة معرفية للأبعاد التي تشتغل من خلالها، والمتطلبات التي تستلزمها**، كما أن حديثه عن سمات الأيديولوجيا وخصائصها يوضح خيوط الأيديولوجيا الليبرالية من ناحية، وضرورة الثورة على الأنظمة الرأسمالية من ناحية أخرى.

ثانيًا: إن الأطروحة المحورية التي تتركّز حولها كتابات جيجيك تتمثل في ضرورة إعادة فهم الآليات التي تشتغل من خلالها الليبرالية من ناحية؛ بحيث يُمكِّننا مواجهة الرأسمالية القائمة على الصعيد المحلي والعالمي، والكشف عن الفساد الكامن في بنيتها الجوهرية، وتقوم من ناحية أخرى على إعادة النظر في إشكالية إخفاق الأيديولوجيات الاشتراكية والثورية. ومن هذه النقطة، لا يكفي معارضة الرأسمالية سياسيًا، أو تغيير الواقع جذريًا، وإنما يجب التركيز على تقويض البنى الأيديولوجية القائمة من جانب، والعمل على البناء الحقيقي من جانب آخر؛ لأن النظام القديم إما أنه سيعمل– بعد وقوع الثورة– على إعادة إنتاج نفسه مرة أخرى عن طريق إعادة تشكيل المؤسّسات القديمة، أو أنه سيعمل على دفع الثورة– إذا وقعت– نحو حرب أهلية.

ثالثًا: إذا كان ماركس قد حدَّد الأيديولوجيا بوصفها وعيًا زائفًا، فإن جيجيك انتهى إلى أن الأيديولوجيا تؤثر في مسار الإدراك والفعل، وليس على مستوى الأفكار وحدها. وبعبارة أخرى، فإن الأيديولوجيا لا تشتغل على المستوى المعرفي، وإنما بوصفها ممارسة عملية، على الرغم من توافر المعرفة الصحيحة لدى الأفراد؛ بحيث تُجنِّبهم من المواجهة والصدام مع الواقع. ونتيجة لهذا، فإن الأيديولوجيا لا تعمل على إخفاء الواقع، وإنما على سد الفجوة بين بنائها وبين الواقع.

رابعًا: حاول جيجيك تطوير فكر مادي للأيديولوجيا، وقد جاء تصوره لها كتخييل غير واعٍ يستهدف تشكيل الواقع بطريقتها الخاصة. كذلك فقد جاءت رؤيته أكثر اتساعًا وانفتاحًا من الأطروحات الماركسية التقليدية، كما لم يتقيَّد بطرح لينين الذي يضعها في قالب ثنائي مكون من: إما أيديولوجية اشتراكية، أو أيديولوجية برجوازية. بدلًا من ذلك عمل على توسيع هذه الرؤى في النظر إلى الأيديولوجيا، وقد استطاع بالفعل أن يخرج بمفهوم الأيديولوجيا من إطاره الماركسي الضيق إلى آفاق أوسع وأرحب وأكثر شمولًا في مجالات الحياة المختلفة. وهذا كله رغم انطلاقه من العقيدة الماركسية.

خامسًا: إن جوهر مفهوم جيجيك للأيديولوجيا لا يتمثل في كونها مجموعة من التمثُّلات الزائفة الناتجة عن تشوه في طبيعة التناقضات الاجتماعية، بل أيضًا بوصفها أي قوة خام؛ رمزية، أو مادية، تعمل على إرباك وتشويش الإدراك الصحيح للأفراد لواقعهم، وذلك من خلال تعويلها ليس على فرض نفسها بطريقة مباشرة، وإنما من خلال آليات محددة؛ من بينها: التشكيك، والتعمية الذاتية، والإخضاع، ويتم ذلك في إطار تجسُّدها في ممارساتهم الثقافية.

سادسًا: ظل جيجيك مُتشبِّثًا بالفرضية الشيوعية لأنها لا تزال حيّة وقابلة للتطبيق، على الرغم من انتقاداته للحركات الاشتراكية والتجارب الشيوعية. فالمستقبل- في اعتقاده- لن يكون للرأسمالية، ولكن للشيوعية، وعلى أضعف الإيمان للاشتراكيات التي ستكون مدخلًا للشيوعية. لكنه في المقابل لا يقع في حتمية ماركس التي أكد من خلالها قرب فناء النظام الرأسمالي. هذا إلى جانب نقد جيجيك لليسار التقليدي، وهو نقد لا يخلو من دلالات مهمة.

سابعًا: إن الهدف الأساسي من تطوير جيجيك لنظرية الأيديولوجيا هو ضخ دماء جديدة في الماركسية، وإعادة إحياء الفكرة الشيوعية بعد أن أصابها الوهن في مواجهة الصعود المتزايد للرأسمالية، وإخفاق التيارات الاشتراكية التي حاولت أن تُكيِّف أوضاعها مع رأسمالية عصر ما بعد الحداثة. ومن هذا المنظور كان ملتزمًا ومُخلِصًا للفكرة الشيوعية.

ثامنًا: إن تأكيد جيجيك على ضرورة تصحيح مسار إدراك الأفراد لواقعهم الاجتماعي لا يعني سوى نقد الأيديولوجيا التي تتجسَّد في الطريقة التي ينظرون إلى الواقع من خلالها، وذلك قبل الشروع في أي تغيير ثوري. فالأفراد في حاجة إلى إيمان حقيقي

بضرورة التغيير من ناحية، مثلما أن هناك ضرورة في تعديل طريقة إدراكهم للواقع من ناحية أخرى؛ لأن هذا الإيمان من جانب، وهذا التصحيح لإدراكهم من جانب آخر، من شأنهما أن يُحوِّلا حالة الاستكانة التي يعيشون فيها إلى حالة من المقاومة الفعّالة والرغبة في التغيير الحقيقي.

تاسعًا: إن تعويل جيجيك على ضرورة تغيير المفاهيم المسيطرة كبداية أولى نحو الثورة، يؤكد مدى نزعته الاجتماعية التقدمية. فليس هدف الثورة مجرّد الإطاحة بالحكام، أو تغيير الأنظمة القائمة، وإنما هدفها الأساسي تغيير المفاهيم الأيديولوجية التي تتحكم في الأذهان، والسعي لبلورة رؤية فكرية جديدة عن النظام البديل. ومن هنا كان جيجيك في ذلك ثوريًا إلى أقصى حد، بمعيار السياسة التقدمية؛ إذ الثورة الحقيقية تتمثل أولًا وقبل كل شيء في تغيير الطريقة التي نفكر بها، الأمر الذي يستلزم بالضرورة تغيير منظومة القيم والمفاهيم الرجعية المسيطرة.

عاشرًا: استطاع جيجيك أن يبرهن على أن أزمات الرأسمالية تسير بها في اتجاه تفكك أو تفسخ البناء النظري الفكري لليبرالية. فليست أزمة الرأسمالية كامنة على مستوى الواقع الاقتصادي المعاصر، بل على مستوى المشروعية النظرية للأصول الليبرالية التي تتبنى عليها، ولا أدل على ذلك من أن الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي تتعرض لها كل فترة تُمثِّل تحديات كبيرة لليبرالية التي راحت- منذ ظهورها- تتنبأ بأن إطلاق الحريات الاقتصادية من شأنه أن يُوفر الرخاء والرفاهية لغالبية أفراد المجتمع.

حادي عشر: تُعَدُّ السينما- من بين مختلف الفنون- من أهم وسائل الإخضاع الاجتماعي؛ حيث تُمثِّل الميدان الأكبر للصراع الأيديولوجي الذي لا يمكن تجاوزه بالمعنى المفتوح والواسع لكلمة الأيديولوجيا، وذلك عن طريق إعادة إنتاج الواقع بما يتوافق مع الأفكار والرؤى التخييلية للسلطة الحاكمة. ولا أدل على ذلك من أن هوليوود- كما استطاع جيجيك أن يكشف عن ذلك- تُمثِّل أداة مهمة من أدوات الهيمنة الأمريكية؛ من خلال ما أنتجته من أفلام الكوارث، سواء تلك المُتخيَّلة عن أحداث مستقبلية في الولايات المتحدة، أو تلك التي تدور أحداثها عن كوارث العالم الثالث.

ثاني عشر: إن ما يَعيب فكر جيجيك هو تركيزه على الجانب السلبي في نقد الرأسمالية، وعدم اهتمامه- بشكل كافٍ- بالناحية الإيجابية المتمثلة في كيفية التحول إلى المجتمع العادل. وإذا كان العديد من الباحثين والدارسين يُثنون على نقده للرأسمالية،

فإن الكثيرين منهم يوجهون إليها الانتقادات؛ حيث إنها تَحوِي بعض الالتباسات، وفي بعض الأحيان يبدو جيجيك متناقضًا!

ثالث عشر: إذا كان جيجيك قد بَدا بالنسبة للبعض فوضويًا، ونصيرًا للعنف الثوري الذي لا تَحِدّه حدود في ضوء دعوته إلى ممارسة هذا النوع من العنف، فإننا لا ينبغي أن نتجاهل عمق الصدمة التي يعيش فيها الأفراد في العالم المعاصر والتي تكشف عنها كتاباته، وهي صدمة تبرهن على مدى سطوة الأيديولوجيا الليبرالية الجديدة، ويجب أن تدفع الأفراد إلى تعرية واقعهم والتخلي عن كل أمل كاذب، وكل تفاؤل زائف تحاول الديمقراطية الأمريكية الترويج له لكي تُحكِم قبضتها على الأفراد والشعوب بطريقة أكثر سلطوية.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر (من كتابات سلافوي جيجيك).

(1) Žižek, Slavoj (1989): ***The Sublime Object of Ideology***, London & New York: Verso, 2nd. ed., 2008.

(2) _____ (1991): ***For They Know Not What They Do: Enjoyment as a Political Factor***, London & New York: Verso.

(3) _____ (1991): ***Looking Awry: An Introduction to Jacques Lacan through Popular Culture***, Cambridge, Massachusetts: MIT Press.

(4) _____ (1992): ***Enjoy Your Symptom! Jacques Lacan in Hollywood and out***, London & New York: Routledge.

(5) _____ (1993): ***Tarrying with the Negative: Kant, Hegel and the Critique of Ideology***, Durham, N.C.: Duke Univ. Press.

(6) _____ (1994): ***The Metastases of Enjoyment: Six Essays on Woman and Causality***, London & New York: Verso.

(7) _____ (1994) (ed.): ***Mapping Ideology***, London: Verso.

(8) _____ (1996): ***The Indivisible Remainder: An Essay on Schelling and Related Matters***, London & New York: Verso.

(9) _____ (1997): ***The Plague of Fantasies***, London & New York: Verso.

(10) _____ (1999): ***The Ticklish Subject: The Absent Centre of Political Ontology***, New York: Verso.

(11) _____ (2001): ***On Belief (Thinking in Action)***, New York: Routledge.

(12) _____ (2002): ***Did Somebody Say Totalitarianism? Five Essays on the (Mis)Use of a Notion***, London & New York: Verso.

(13) _____ (2002): ***Welcome to the Desert of the Real! Five Essays on September 11 and Related Dates***, London & New York: Verso.

(14) _____ (2002) (ed.): ***Vladimir Lenin, Revolution at the Gates: A Selection of Writings from February to October 1917***, London & New York: Verso,.

(15) _____ (2003): ***The Puppet and the Dwarf: The Perverse Core of Christianity***, Cambridge, MA: MIT Press.

(16) _____ (2004): ***Conversations***, with: and Glyn Daly, London: Polity Press.

(17) _____ (2004): "***NATO as the Left Hand Of God?***", in: Sinkwan Cheng (ed.), *Law, Justice, and Power: Between Reason and Will*, California: Stanford Univ. Press.

(18) _____ (2004): ***Organs without Bodies: Deleuze and Consequences***, New York: Routledge,.

(19) _____ (2005): ***Iraq: The Borrowed Kettle***, London & New York: Verso.

(20) _____ (2005): and Others: ***The Neighbor: Three Inquiries in Political Theology***, Chicago: University of Chicago Press.

(21) _____ (2006): ***The Parallax View***, Cambridge: MIT Press.

(22) _____ (2006): ***The Universal Exception: Selected Writings***, edited by: Rex Butler and Scott Stephens, London & New York: Continuum.

(23) _____ (2007): ***How to Read Lacan***, London & New York: W. W. Norton & Company, Inc..

(24) _____ (2008): ***In Defense of Lost Causes***, London & New York: Verso.

(25) _____ (2008): ***Violence: Six Sideways Reflections***, New York: Profile Books Ltd..

(26) _____ (2009): ***First as Tragedy, Then as Farce***, London & New York: Verso.

(27) _____ (2010): ***Living in the End Times***, London & New York: Verso.

(28) _____ (2012): ***Less Than Nothing: Hegel and the Shadow of Dialectical Materialism***, London & New York: Verso.

(29) _____ (2012): ***The Year of Dreaming Dangerously***, London & New York: Verso.

(30) _____ (2017): ***The Courage of Hopelessness: Chronicles of a Year of Acting Dangerously***, London: Allen Lane.

ثانيًا: كتب ودراسات أكاديمية عن فلسفة جيجيك السياسية:

(أ) كتب كاملة عن نظريته في الأيديولوجيا والثورة وقضايا أخرى ذات صلة:

(1) Bjerre, Henrik J. and Laustsen, Carsten B.: ***The Subject of Politics: Slavoj Žižek's Political Philosophy***, Penrith: Humanities-E-books, 2010.

(2) Boucher, Geoff: ***The Charmed Circle of Ideology: A Critique of Laclau and Mouffe, Butler and Žižek***, Melbourne: Re-Press, 2008.

(3) ……., J. Glynos, and M. Sharpe (eds.): ***Traversing the Fantasy: Critical Responses to Slavoj Žižek***, London: Ashgate, 2005.

(4) Brivic, Shelly: ***Joyce through Lacan and Žižek***, New York: Palgrave, 2008.

(5) Brockelman, Thomas: ***Žižek and Heidegger: The Question Concerning Techno-Capitalism***, London & New York: Continuum, 2008.

(6) Butler, Rex: ***Slavoj Žižek: Live Theory***, London: Continuum, 2005.

(7) Davis, Colin: ***Critical Excess: Overreading in Derrida, Deleuze, Levinas, Žižek and Cavell***, Stanford, CA: Stanford Univ. Press, 2010.

(8) Dean, Jodi: ***Žižek's Politics***, London: Routledge, 2006.

(9) Hamza, Agon & Ruda, Frank (eds.): ***Slavoj Žižek and Dialectical Materialism***, Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2016.

(10) Homer, Sean: ***Slavoj Žižek and Radical Politics***, New York: Routledge, 2016.

(11) Johnston, Adrian: ***Badiou, Žižek, and Political Transformations: The Cadence of Change***, Evanston: Northwestern Univ. Press, 2009.

(12) ……: ***Žižek's Ontology: A Transcendental Materialist Theory of Subjectivity***, Evanston: Northwestern Univ. Press, 2008

(13) Kay, Sarah: ***Žižek: A Critical Introduction***, Cambridge: Polity Press, 2003.

(14) Kotsko, Adam: ***Žižek and Theology***, London: T & T Clark, 2008.

(15) McMillan, Chris: ***Žižek and Communist Strategy: On the Disavowed Foundations of Global Capitalism***, Edinburgh: Edinburgh Univ. Press, 2012.

(16) Parker, Ian: ***Slavoj Žižek: A Critical Introduction***, London: Pluto Press, 2004.

(17) Pound, Marcus: ***Slavoj Žižek: A (Very) Critical Introduction***, Grand Rapids: W. B. Eerdmans Publishing Co., 2008.

(18) Rickert, Thomas: ***Acts of Enjoyment: Rhetoric, Žižek and the Return of the Subject***, New York: University of Pittsburgh Press, 2007.

(19) Samuels, Robert: ***New Media, Cultural Studies, and Critical Theory after Postmodernism: Automodernity from Žižek to Laclau***, New York: Palgrave Macmillan, 2009.

(20) Sharpe, Matthew: ***Slavoj Žižek: A Little Piece of the Real***, London: Ashgate, 2004.

(21) ……, and Geoff Boucher: ***Žižek and Politics: A Critical Introduction***, Edinburgh: Edinburgh Univ. Press, 2010.

(22) Sheehan, Seán: ***Žižek: A Guide for the Perplexed***, London: Continuum, 2012.

(23) Simons, Jon (ed.) : ***Contemporary Critical Theorists: From Agamben to Žižek***, Edinburgh: Edinburgh Univ. Press, 2010.

(24) Taylor, Paul A.: ***Žižek and the Media***, Cambridge: Polity Press, 2010.

(25) Vighi, Fabio: ***On Žižek's Dialectics: Surplus, Subtraction, Sublimation***, London & New York: Continuum, 2010.

(26) ……, and Heiko Feldner: ***Žižek's Beyond Foucault***, Basingstoke, UK: Palgrave Macmillan, 2007.

(27) …… (eds.): ***Did Somebody Say Ideology? On Slavoj Žižek and Consequences***, Cambridge: Cambridge Scholars Publishing, 2007.

(ب) مقالات ودراسات أكاديمية عن فلسفة جيجيك:

(28) De Kesel, Marc: "***Act without Denial: Slavoj Žižek on Totalitarianism, Revolution and Political Act***", *Studies in East European Thought*, Vol. 56, No. 4, (Dec., 2004).

(29) Finlay, Christopher J.: "***Violence and Revolutionary Subjectivity: From Marx to Žižek***", *European Journal of Political Theory*, Vol. 5, No. 4, 2006.

(30) Johnson, Alan: "***Slavoj Žižek's Theory of Revolution: A Critique***", in: Johnson, Matthew (ed.), *The Legacy of Marxism: Contemporary Challenges, Conflicts, and Developments*, London: Continuum, 2012.

(31) Linden, Harry van der: "***On the Violence of Systemic Violence: A Critique of Slavoj Žižek***", *Radical Philosophy Review*, Vol. 15, No. 1, 2012.

(32) Moriarty, Michael: "***Žižek, Religion and Ideology***", *Paragraph*, Vol. 24, No. 2, (July 2001).

(33) Myers, Tony: ***Slavoj Žižek***, London: Routledge, 2003.

(34) Olson, Gary A. & Worsham, Lynn: "***Slavoj Žižek: Philosopher, Cultural Critic, and Cyber-Communist***", *JAC: A Journal of Composition Theory*, Vol. 21, No. 2 (Spring 2001).

(35) Sharpe, Matthew: "***When the Logics of the World Collapse: Žižek with and against Arendt on 'Totalitarianism'***", *Subjectivity* Vol. 3, No. 1 (Apr., 2010).

(36) Smith, Neil: "***The Revolutionary Imperative***", *Antipode*, Vol. 41, No. S1, 2009.

(37) Van Der Zweerde, Evert: "***The Many Faces of Slavoj Žižek's Radicalism***", *Studies in East European Thought*, Vol. 56, No. 4, (Dec., 2004).

(ج) رسائل جامعية عن الأيديولوجيا والثورة عند جيجيك:

(38) Brown-O'Byrne, Fergus: "***Ideology and Low Intensity Democracy***", *M. A. Thesis in Philosophy*, School of Graduate Studies, Memorial Univ. of Newfoundland, 2011.

(39) Wells, Charles H.: "***The Subject of Liberation: Confronting Slavoj Žižek***", *Ph. D. Dissertation in Philosophy*, York University, Toronto, Ontario, 2010.

ثالثًا: المراجع (كتب ودراسات حول الأيديولوجيا والثورة وقضايا أخرى ذات صلة):

(أ) المراجع الأجنبية:

(1) Althusser, Louis: ***For Marx***, trans.: Ben Brewster, London: Allen Lane, The Penguin Press, 1969.

(2) .....: ***Lenin and Philosophy and Other Essays***, trans.: Ben Brewster, London & New York: Monthly Review Press, 1971.

(3) Arendt, Hannah: ***The Origins of Totalitarianism***, New York: Harcourt Inc. 1973.

(4) Aron, Raymond: ***The Opium of the Intellectuals***, trans. by: Terence Kilmartin, New York: Norton, 1962.

(5) Bell, Daniel: ***The End of Ideology: On the Exhaustion of Political Ideas in the Fifties***, New York: Free Press, 1960.

(6) Benjamin, Walter: ***One-Way Street and Other Writings***, trans.: Jephcott, Edmund & Shorter, Kingsley, London: Verso, 1979.

(7) Debrix, François: "***US Ideology and the War in Iraq***", *International Studies Review*, Vol. 7, No. 1 (Mar., 2005).

(8) Dolan, Frederick M.: "***Political Action and the Unconscious: Arendt and Lacan on Decentering the Subject***", *Political Theory*, Vol. 23, No. 2 (May 1995).

(9) Drucker, H. M.: "***Marx's Concept of Ideology***", *Philosophy*, Vol. 47, No. 180 (Apr., 1972).

(10) Eccleshall, Robert, and Others, ***Political Ideologies: An introduction***, London & New York, Third edition, 2003.

(11) Enteman, Willard F.: ***Managerialism: The Emergence of a New Ideology***, Madison: Univ. of Wisconsin Press, 1993.

(12) Hawkes, David: ***Ideology***, London & New York: Routledge, Second Edition, 2003.

(13) Robert Eccleshall, and Others (eds.): ***Political Ideologies: An introduction***, London & New York, 3rd ed., 2003.

(14) Schwarzmantel, John: ***Ideology and Politics***, London: SAGE Publications Ltd, 2008.

(15) Seliger, Martin: ***The Marxist Conception of Ideology: A Critical Essay***, Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1977.

(16) Sorel, Georges: ***Reflections on Violence***, trans.: Hulme, Thomas E., ed.: Jennings, Jeremy, Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1999.

(ب) المراجع العربيّة والمترجمة إلى العربيّة:

(١٧) الجزيري، محمد مجدي: **العنف والتاريخ عند سوريل**، القاهرة: دار الصافي للطباعة والنشر، ١٩٩١.

(١٨) بوبر، كارل: **عقم المذهب التاريخي**، ترجمة: عبد الحميد صبره، الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٥٩.

(١٩) لوكاش، جورج: **التاريخ والوعي الطبقي**، ترجمة: حنا الشاعر، بيروت: دار الأندلس، ط. ٢، ١٩٨٢.

(٢٠) ليبست، سيمور مارتن: **رجل السياسة: الأسس الاجتماعية للسياسة**، ترجمة: خيري حماد وآخرون، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٦٢.

(٢١) ماركس، كارل، وفريدريك إنجلز: **الأيديولوجيا الألمانية**، ترجمة: فؤاد أيوب، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٦.

(٢٢) .....: «**بيان الحزب الشيوعي**»، ضمن: ماركس وإنجلس، مختارات في أربعة أجزاء، الجزء الأول، ترجمة: إلياس شاهين، موسكو: دار التقدم، د. ت.

(٢٣) ماركوزه، هربرت: **الإنسان ذو البعد الواحد**، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت: دار الآداب، ط. ٣، ١٩٨٨.

(٢٤) .....: **فلسفات النفي: دراسات في النظرية النقدية**، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، القاهرة: دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط. ١، ٢٠١٢.

(٢٥) .....: **نحو ثورة جديدة**، ترجمة: عبد اللطيف شرارة، بيروت: دار العودة، ١٩٧١

(٢٦) منصور، أشرف: «**الأيديولوجيا في عصر تكنولوجيا الاتصال**»، مجلة "الفلسفة والعصر"، العدد الثاني، تصدر عن المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة، يناير ٢٠٠٢.